بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية بسوهاج

# جوانب من أدب الطفولة في العصر الحديث

## "دراسة تحليلية فنية"

إعـــداد
دكتورة/ سهام سيد الدين علي غنيم
مدرس الأدب والنقد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

# جوانب من أدب الطفولة في العصر الحديث
## "دراسة تحليلية فنية"

مقدمة:

الطفولة هي قرّة العين، ومناط الرجاء، وزينة الحياةِ الدنيا، كما نصّ الذكر الحكيم على ذلك في قوله تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[1]. وأطفال اليوم هم بشائر رجال ونساء الغد، فكلّ الأنام كانوا بلا استثناء في أول عهدهم بالوجُود: أطفالاً رضعاء، لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً، بل إنهم يستقبلون الحياة، مع أول أنفاسهم بالبكاء، ويعلل ذلك ابن الرومي تعليلاً ظريفاً لهذا البكاء بقوله[2]:

لما تُؤْذِنُ الدنيا به من صُرُوفِهَا
يكون بُكاء الطفل ساعة يُولَدُ

وإلا .. فيما يبكيه منها، وإنها
لأوسعُ مما كان فيه وأرغدُ..

---

1- سورة الكهف، الآية (٤٦).
2- ديوان ابن الرومي،تحقيق: الدكتور/ حسين نصار، مركز التراث، ١٩٨١، جـ١، ص ٥٩، والمنتخب في أدب العرب،جمع وشرح: د. طه حسين، ود. أحمد أمين، وعلي الجارم، وعبدالعزيز البشري، وأحمد ضيف، ط/ المطبعة الأميرية، ١٩٣٥م، ص ٢٤٨.

والآباء والأمهات، يبذلون كل ما في وسعهم، في تنشئة أبنائهم باعتبار أنهم فُرصهم الأخرى المواتية في الحياة، حتى إنهم لشدة تعلقهم بهم يودُون أن يكونوا -هم لا غيرهم في مستقبلهم خيراً منهم: سعادةً وحظاً.. وصدق الشاعر أحمد شوقي حين قال[1]:

خَلق الحظّ: جُمانا وحَصَى
خالقُ الإنسانِ مِنْ ماء وطينْ

فوليدٌ تسجد الدنيا لـــــــه
ووليدٌ .. في زوايا المهملينْ

وهكذا نجد أن الأبوّة والأمومة في شغلٍ شاغل، وجُهْدٌ شديدٌ، وهيامٌ لا يزيد عليه بأطفالهم في أطوار حياتهم المختلفة، الأمر الذي ألهم الشعراء والأدباء[2]، أسمى آيات البيان والتحنان في التعبير عن مشاعرهم الفياضة في عالم الطفولة، حتى قال الشاعر المعاصر أحمد مصطفى حافظ على لسان الأطفال هذا النشيد الجميل[3]:

نحن أزهار الخميلـــة نحن أفياء ظليلـــــهْ
حقّنا عيد الطفولـــــة بالمسرّات الجميلـــهْ
صاغنا عهد الصغـــر مثل حبات الـــــدررْ

---

1- ديوان الشوقيات، للشاعر أحمد شوقي، طبعة دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

2- قد يكون الشاعر أديباً أيضاً كالرافعي والعقاد، أما الأديب فقد لا يكون شاعراً، كالزيات وأحمد أمين على سبيل المثال.

3- ديوان أبناء وظلال للشاعر/ أحمد حافظ، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٨٣/١٨٤، والنص من مشهد مسرحي.

كصفاء الغدير بَسْمَةُ بِنْتِـــــي

تبعث النورُ في جوانبِ بيتِـــي

أين منها ابتسامة (الجيوكَنْـــدَا)

محضُ رسمٍ .. إذ تُقاس ببنتي![1]

لا ترى العينُ، قط، أجمل منهـــا

أنا أدْرَى ..بعَرْسِ حُسْنٍ بَحْـــتِ!

في خريف الحياة فاح شذاهـــــا

يبعثُ الدفءَ ..في بُرودة صَمْتِي

إلى أن يقول متشوقاً:

أرجعتني لما مضى من هنـــــاءٍ

جلَّ قدْراً..عن كل وصْفٍ ونعتِ

فأراني .. أهيم بين فـــــــراشٍ

وزهور .. مُتابعاً خَطْوَ أخْتِـــي

والعصافير في العشاش تغنِّـــي

بانتشاءٍ .. تروحُ فيه وتَأتِـــــي

إلى أن يختتم قصيدته بقوله:

---

1- الجيوكندا: هي لوحة "الموناليزا" الشهيرة ذات الابتسامة العيجبة وهي رسمها الرسام العالمي ليوناردو أفنشي.

ضاق شعري بما أكِنُّ، وبثّـــي
دقّ عما يتيحه شطر بيْـــتِ

عن يميني وعن يساري ظـــلامٌ
لم يُبدِّدْهُ غير بسمةِ بنْتِـــي

.. أنت يا فلذة الفؤاد عزائـــي
في جِلادي .. ومنية النفس أنـتِ

**

## الشعراء يعبرون عن مشاعر الطفولة بلغات بلادهم

### *أولاً: الشاعر الهندي تاغور:*

ويغرينا بعد ذلك أن نلجَ عالم شاعر الهند الأكبر ابندرانات تاجور، الذي اختصّ الطفل بشطرٍ كبيرٍ من فنه وعبقريته، وأعطانا لوحات حية لمرح الأطفال في لهوهم البريء، منها قوله المترجم نثراً عن الإنجليزية[1]:

"على شواطئ عالم الطفولة اللانهائية يلتقي الأطفال.

يصيحون ويرقصون ..

هنالك .. يشيِّدُون من الرمال بيوتاً

ويجمعون من الأرض أصدافاً

- - -

1- فلسفة الطفولة، ترجمة: حبيب سلامة، طبعة ١٩٣١م، ص ١٠.

ويقول تحت عنوان: (المنبع)[١]:

.. والنوم - ذلكم الملك المجهول

الذي يحُوم بأجنحته البضّة

ويلمس برقةٍ جفنيْ الطفل لينام ..

أيدري أحد من أين مأتاه؟

أجل .. ثم إشاعة أن مثواه

في زهرتين خضْرتيْن مسحورتيْن

في قرية هادئة من قرى الجن

في ظلال غابة مجهولة

ليس فيها من النور إلا الحباحب واليراع

حيث يجيء .. يقبّل مقلتي الغلام،

ذلك هو النوم الذي يرفرف على شفتي طفل نائم ..

وتلك الابتسامة الرقيقة

التي تتوامض على شفتيه في وسنه[٢]

أيدري أحد من أين نجمت؟

---

1- المصدر السابق، ص ١٥.

2- وسنه: نومه.

أجل! ثمة إشاعة أن شعاعاً ضئيلاً

من هلال السماء

مَسَّ بطرف جناحه حافَّة سحابة خريف

وكان أول انبعاثها في حلم الصباح

المغسول بالندى

تلكم هي الابتسامة الرقيقه

التي تتألق على شفتي الطفل في وَسَنِهِ ..

* * *

## ثانياً: الشاعر الفرنسي: فيكتور هيجو:

لهذا الشاعر ديوان مُترع بأدب الطفولة، وهو يحمل عنوان "الأطفال" (أهازيج الأمهات)[1]:

وقد قام الناقد الشاعر أحمد مصطفى حافظ بترجمة شعرية لنص من هذا الديوان، استهلها بالأبيات التالية:

صَفَّقَ الأهلُ باصطخابٍ شديد

عند إطلالة الوليد الجديـــــد

---

1- المصدر السابق، ص ١٥.

وسَبَتْهُم من طرفهِ نظـــرات

حين يرنُو .. ذات ائتلاقٍ فريد

وتبدَّتْ أعْنَى الحياة ..عبوساً

بتلاشى التقطيب والتجعيـــد

رؤية الطفل طافراً بســـرور

حققت يوم بهجة وسعـــــود

إلى أن قال مناجياً الطفل المولود:

أيها الطفل، يا وديعاً تبـــدَّى

أشقر الشعر كالأقاح النضيـد

في رُواء، وهالة من نضـــار

وابتسام مشعشع في الوجـود

في خيالاته العذوبة تسْـــري

ملْءَ صوت منغم الترديـــد

رُحْتَ تهفُو، بلثغةٍ .. لحديـثٍ

مُستطابٍ..ولم تزل في المهود

إلى أن يترجم ختام هذه القصيدة، بقوله[1]:

---

1 - Les & M Famts (Les Liores De meres).

يا إلهي، صُن مَنْ أحِبُّ جميعاً
واعْفُ حتى..عن العدوِّ اللدود!

عَلَّ عفواً يكون خير سبيـــــلٍ
لاكتساب الوفاق بعد الصـــدود

..يآ إلهي-ولا أرى الصيف صيفاً-
دون روْضٍ منضّدٍ بـــــورودِ

دون دوح مُشَقْشق في أصـــيلٍ
بالعصافير..ملء رحْبِ النجود[1]

لا أرى الدار-قد خلت من صغارٍ-
لَوْ بقصرٍ .. إلا .. كقفرِ البيـد![2]

وبمقارنـة أبـيات الشـاعر الفرنسـي "فيكـتور هـيجو" عـن الطفولـة بنظـيرتها عـند تـاغور الشـاعر الهـندي، نجـد أن "هيجو" قد هَوَّم في سماء الخيال، بعبارات أثيرية تكمن في تعبيره كما يلى:

والشواطئ اللانهائية، التي يلتقي عندها الأطفال، والنوم، ذلك الملك المجهول الذي يحوم بأجنحته البضّة، والذي مثواه (زهرتين خفرتين مسحورتين) .. الخ.

---

1- ذكر المترجم: أنه استخدم لفظة (الدوح) بدلاً من لفظة (الأقفاص) التي استخدمها(هيجو)لأنها الأنسب،فالقيد قيد -كما يقول، ولو صيغ من ذهب.
2- مجلة الأزهر، عدد يناير، الصادر في رجب ١٤١٣هـ / ١٩٩٣.

كلّ ذلك يمثل إغراقاً في الخيال، واستعمال المحسنات البديعية، في حين عمد "هيجو" إلى وصف أقرب إلى الواقعية في تصويره مشهد الأهل بعد أن رُزقوا بمولودٍ جديد، أضفى على وجودهم بهجة حقيقية، شملت الأهل كلهم بالطفل الذي جاءهم في هالةٍ من نضار، وهو يحاول أن ينطق بالأصوات التي تصدر عنه، بلثغة محبّبة، ثم بمناجاة الشاعر لله عز وجل، بعموم الرحمة للناس أجمعين، والمحبة حتى للعدو- كي يستطيع البشر أن يستلهموا السخيمة الكامنة في نفوس أعدائهم، ليصبحوا جميعاً أفراداً متحابين.

ثم وصفه للدار التي تخلو من الصغار الأعزاء، كأنها أرض بلقعٌ، أو قاعٌ صفصفٌ، ومن ذلك نرى أن نص قصيدة "هيجو" أبلغ وأدق في التعبير، من نص تاغور، في تصوير مسرّات الطفولة.

***

## ثالثاً: الطفل بين العقاد والمعرّي:

للمعري بيت مشهور عن الإنجاب يقول فيه:

وإذا أردتم بالبنين كرامـــــــةً

فالحزمُ أجمعُ: تركهم بالأظهر!

أي: حيث هم في عالم الغيب بأصلاب آبائهم وبدون إنجاب لهم، في هذه الحياة الدنيا ولعله قال هذا البيت تعزيزاً وتأكيداً

لقولـه فـي بيته المشهور الآخر، متألماً من وجوده في الدنيا ثم مماته وإيداعه في قبر مظلم مُغلق عليه:

هذا جناه أبي عليّ وما جنيتُ على أحدٍ[1]

وقد رد شوقي -الذي تزوج وأنجب- على هذا البيت الأخير بقوله:

بيني وبين أبي العلاء قضيـــة[2]
في البرِّ .. أسْترعي لها الحُكماءَ

هُوَ قدْ رأى نُعْمَى أبيه جنايـــةً
وأرَى (الجناية) من أبي نعماءَ

أما العقاد الذي لم يتزوج؛ وبالتالي لم ينجب- فقد أجرى محاورة في الخيال بين المعري وابن مزعوم له.. في الغيب، أو ما زال في أظهر الآباء على حد تعبير المعرّي .. وفي هذا الحوار، يتوسل الابن إلى أبيه (المعري) أن يأذن لـه بالميلاد؛ كي يرى دنيا الناس، يقول:

يا أبى طال في الظلام قُعُودِي
فمتى أنت مُخرجِي للوجـــودِ؟

---

1- ديوان الشوقيات، جـ٤، ص ٢٣٣، طبعة دار الجيل، بيروت، تحقيق: د. إميل أكبا، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

2- ديوان "سقط الزند" لأبي العلاء المعري، تصحيح: إبراهيم الزين، طبعة دار الفكر، ١٩٦٥، ص ١٦٠، ١٦٥.

طال شوقي إليك..فاحْلُلْ قيودي..

يا أبي .. عالم الظلام مخيـــف

ليس يقوى عليه طفل ضعيـف

فأجِرْنِي من ظلّهِ المســـــــدود

فيجيبه (العقاد) أيضاً، بلسان والده (أبي العلاء المعرّي) وكأنه -أي العقاد- همزة الوصل بينهما:

ولَدِي: إني أبوك الرحيـــمُ

أنت بالعيش يا بنيّ عليـــمُ

لا تصدِّقْ مقالة .. من بعيدِ

إلى أن يقول:

إن غُنْم الحياة .. مَنْ لم يجدْه

لم يمتَّع .. به ولم يفتقـــــده

فاغتنمْ ربْحَ ..شرِّها..المفقود!

ثم يزجي لابنه في الغيب، النصيحة العقادية التالية:

قِفْ بباب الحياة لا تَدْخُلَنْها

واعْتصِم يا بنيَّ - ما اسطعْت منها

سوف ألقاك -فانتظر- بالوصيـد!

والنتيجة التي انتهى إليها هي قوله في ختام القصيدة:

هكذا أقنع (المعرِّي) الوليـــــدَا

فتنحّى عن الحياة .. بعيـــــدًا

والتقي الشيخ وابْنه..في اللحودا

أي أنهما: الأب والابن قد التقيا .. في وادي العدم!، هذا، وللمعري أبيات أخرى، قالها على لسان طفلٍ مات صغيراً:

تقول حَلَلْتَ عاجلتي بكرهِي
فعشت وكمْ لَدَدْتَ وكَمْ شَقِيتُ

فلما صِيحَ بي ودَنا فطامِـــي
تيَمَّنِي الحِمامُ فما وُقِيـــــتُ

تركت الدار خاوية لغـــيري
ولو طال المقام بها شقيـــت

نَقِيتُ، فما دنَستُ، ولو تمادت
حياةٌ بي .. دَنِسْتُ ممّا نُقِيـــتُ

رَقَتْنِي الرأقياتُ وحُمَّ يومِـــي
فغادرني .. كأني ما رُقِيـــتُ

وما يُدريكَ، باكيتي، عسانِـــي
بسكنى الفوزفي الأخرىانْتُقِيتُ

ومن صُنْع المليكِ .. إليَّ أنِّـي
تعجَّلت الرحيل .. فما .. بقيت

وهذه الأبيات -وإن تضمنت فلسفة أبي العلاء التشاؤمية- كما يقول الدكتور/ محمد زغلول سلام- فإنها تنبئ عن رغبة في رحمة الطفولة من صراعات الحياة والخشية على أن تُلوِّث براءتها، وما غرسَ اللهُ جل وعلا، في تلك النفس من فطرة، بشرور الناس، بعد أن يشبّوا عن الطوق، وتتباين رغباتهم، وتتشابك أطماعهم[1].

أما للشاعر محمد فضل إسماعيل[2]، فله قصيدة يأتي فيها بقريب من هذه المعاني:

قد كنتُ في ظلمات البطن مضطجعاً
في مأمن لا أرى .. خوفاً ولا فزعـاً

---

1- الأدب في العصر الفاطمي، د. محمد زغلول سلام، طبعة منشأة المعارف، بالإسكندرية، (ب.ت)، جـ٢، ص ٢٨٧.

2- الشاعر محمد فضل إسماعيل ولد ببلدة فاقوس بمحافظة الشرقية عام ١٨٩٨م، حفظ القرآن الكريم في كُتاب القرية ثم انتقل مع والده إلى السويس وحصل على الشهادة الابتدائية، وأكمل دراسته بالأزهر الشريف، ولثقافته الدينية أثرٌ على نتاجه الأدبي، وله ديوان كامل حققه وجمعه الأستاذ: أحمد مصطفى حافظ، وقدم له دكنور/ مختار الوكيل، والأستاذ: عامر البحيري.
- ينظر: شعراء معاصرون، ص ٥٩ وما بعدها للأستاذ: أحمد مصطفى حافظ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

فلا أجوع ولا أعْرَى..ولا اضْطربتْ
نفسي .. ولا كنت للأهواء مندفعَـــا

ولا بكيْتُ لأسباب تُنَغِّصُنِـــــــــي
ولا تجسّمت آلاماً ولا وجَعَـــــــا

حتى خرجت إلى الدنيا، فأدركنـــي
همٌّ بكيت له، في حينه، تَبَعَـــــــا

إلى أن يقول لأمه؛ معتذراً:

أمَّاهُ مَعْذِرَةً، إني لفِي خَجَـــــــلٍ
إن لمْ أهَنِّئْ بِكِ الأعيادِ والجُمُـــعَـا

إنَّ الوليدَ الذي "ربّيْتِ" مُعْـــتَرفٌ
بُحجْرِ والدةٍ من ثديها رضعَـــــا

فكم سهرت على مهدي وكم دَفَعتْ
يدُ العنايةَ عنّي شرَّ ما وَقَعَـــــا

وكان نظمه لهذه القصيدة بسبب مناسبة (عيد الأم) ومن ثمّ يستتلي قائلاً:

هل مَنْ يردُّ على مثلي طفولتـــه
ما أجمل الطفل،يوم العيد،إن رَتَعَا

وهل رسولٌ إلى أمي يبلغهـــــا
أن البناء الذي شادت قد انْصَدَعَا[1]
سبعون عاماً به مرّت فما تركـت
من المحاسن إلا: منظراً بشعَـــا!
شيخٌ أضَرَّ به صيفٌ وأسلمـــــهُ
بَرْدُ الشتاءِ إلى ركنٍ به قَبَعَـــــا
للأمَّهَاتِ هنا عندي مواجهـــــةٍ
أريد أمًّا تربِّي شِبْلَها سَبْعَـــــا
أريد أمًّا تربي الطفل راجيـــــةً
أن يصبحَ الطفلُ بالأعباء مضطلعَا[2]

ونحن نرى أن الشاعر محمد فضل إسماعيل ينظر في فكرة قصيدته تلك، إلى قصيدة للشاعر الإنجليزي "لويس ماكنيس"، والتى قام الشاعر محمد فضل إسماعيل "نفسه" بترجمتها -شعراً- إلى العربية، بعنوان: (صلاة طفل لم يولد بعد) وفيها يقول:

أنا ابن الغيب لم أشهـد
لكم ظلا .. ولم أولـــدْ

---

1- يصور الشاعر أنه بناء شيدته وغذته ونمته أمه؛ وأنه قد انهار بموتها.
2- ديوان فضل، ص ٢٢٧.

أناديكم، فأصْغوا لـــي
فغير الحق لم أقصـــدْ

إذا ما جئت دنياكـــم
وفيها كان لي مـــوردْ

فإياكم وإيذائـــــي
بلون قاتم أســـــود

كفارٍ أو كخفـــــاش
على الدم إن طغى عربدْ

وكالتنين أو غـــــولٍ
كوحشِ الغابِ مستأســدْ

***

أنا ابن الغيب لي مطلـب
لدى قومي ولي مـــأرب

إذا ما جئت دنياكـــم
وفيها كان لي موكـــب

فقولوا كيف ألقاهـــا
وما الدور الذي ألعـــب

وكيف الوضع إن أمْـرٌ
عنّا،أو ضاق بي..مذهب

وكيف أكون إن أصبح
أباً في أسرةٍ ينجـــبْ

وجاء النسلُ لعّاناً
وشتاماً بلا موجِـــبْ

***

أنا ابن الغيب فلتسمـــع
نداء الحق .. لا تفـزع

متى ما جئت دنياكـــم
وفيها كان لي موضـعْ

فلا أرضى بكَفّـــار
غشومٍ ظالم يرتـــعْ

ولستُ أقرُّ جبّـــاراً
أمام الحق لا يخشـــع

وإلا .. قبل ميـــلادي
فَزَكُّوني .. بما .. يَمْنَعْ!

***

وقد حرصنا على إثبات أبيات النص المترجم كاملاً؛ ليتسنى لنا المقارنة بينه وبين أبيات العقاد عن المعرّي وابنه، وأبيات فضل ..

وعندنا أن أبيات "فضل" فيها موسيقية عذبة آسية، في أبيات المطلع، حتى قوله:

هل من يرد على مثلي طفولتـــه
ما أجمل الطفل يوم العيدِ إن رَتَعَا

أما بقية أبيات القصيدة، فليست في شاعرية أبيات المطلع، أما أبيات العقاد فتتسم بالروعة ووحدة الموضوع، والدعوة إلى إدامة التفكير والتأمل .. وهي من أوابد العقاد..

أما قصيدة "لويس ماكنيس" فأجود منها، البيت الأخير، الحاسم والدالّ على كل ما ابتغاه الشاعر من قصيدته بأكملها:

وأما قبل ميلادي فزكّوني بما يمنع!

***

## صوّر الطفولة البائسة:

### أولاً : الأرملة وأبنها اليتيم:

للرصافي-الشاعر العراقي، قصيدة بعنوان (أمّ اليتيم) صوّر فيها قصة إنسانية، لأم فقدت زوجها، وأصبحت في حالة بائسة من الفقر المدقع، وأجرى حواراً لها مع ابنها الطفل الصغير، يقول فيه[1]:

سَلِي ذا الفتى يا أمُّ: أين مضى أبي
وهل هو يأتينا.. مساءً بمطعَمِ
فقالت له - والعين تجري غروبُها
وأنفاسُها يَقْذِفْنَ شعلةَ مُضرمِ:
أبوك ترامتْ فيه سَقْرةُ راحلٍ
إلى الموت، لا يُرجى له يوم مَقْدَمِ
ولولاك لاخترتُ الحِمام تخلصاً
بنفسيَ من أتعاب عيْشٍ مُذَمَّمِ[2]

---

1- دراسات في الشعر العربي المعاصر، د. شوقي ضيف، طبع مكتبة الخانجي، ص ٣٥.

2- صفحات من حياة الرصافي وأدبه، تأليف: هلال ناجي، ط مكتبة العرب، القاهرة، ١٩٦٢، ويُنظر:

وسبب النظم أن الرصافي، استرعى انتباهه صوت أنين؛ يمزّق نياط القلوب، لامرأة ثكلى طوال الليل، فدخل في الصباح يستطلع الأمر- فوجد جسماً ضعيفاً أنهكته الهموم، وبجواره طفل صغير لم يجاوز خمسة أعوام من عمره، يتضوّر من الجوع، ولا تملك الأم غير دموعها، تردّ بها على رغبته في الزاد، فلما رآه الشاعر؛ توجّه إلى أمه بالخطاب السالف الذكر، راجياً أن تسأل هذا الشاعر -أي الرصافي- أين أبوه؟..

ومن هنا صاغ الأبيات الآنفة الذكر، يصوّر فيها واقع الحال..

وللشاعر العراقي معروف الرصافي قصيدة يقصّ علينا فيها مأساة اليتيم، وتسمى "الأرملة المرضعة" وهي قصة امرأة فقيرة بائسة، اغتال الموت زوجها، وتركها بين أطمارها في موقف أليم، مع وليدتها التي كانت معها في همٍّ شديد، لا تدري كيف تقيم أوَدها، وترعاها في الظروف القاسية التي تمر بها..

ويستهل الشاعر، قصيدته بوصف دقيق موجع لحالة هذه البائسة، فيقول:

---

-معروف الرصافي، شاعر العرب الكبير "حياته وشعره"، تأليف: قاسم الخطاط ومصطفى السحرتي، ود. محمد عبدالمنعم خفاجي، طبعة الهيئة المصرية للتأليف والنشر، طبعة ١٩٧١، ص ٢٥٢/٢٥٣.

لقيتها ليتني ما كنت ألقاهـــــــا
تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاهـــا
أثوابها رثّةٌ، والرجْلُ حافيـــــــةٌ
والدمعُ تذرفهُ، في الخدِّ عيناهـــــا
بكتْ من الفقر فاحمرّتْ مدامعهـــا
واصفرّت كالورْس من جوعٍ محيَّاهَا[1]
مات الذي كان يحميها ويُسعدُهـــا
فالدهر من بعده .. بالفقر أشقاهـــا

والأدهى والأصعب، بعد وصف حالتها بدقة متناهية، هو بلواها بطفلتها التي أنجبتها قبيل رحيل زوجها، وهو الجانب الذي يخصّنا في هذه القصيدة، إذ يقول عنها أنها كانت:

تمشي وتحمل باليُسْرَى وليدتـــــه
حَمْلاً على الصدر..مدعوما بيُمناها
قد قمطتها بأهدامٍ ممزقـــــــــة
في العين مَنشرُها سَمْجُ ومطواها

---

1- الورس: نبات أصفر اللون.

وبعد هذا التصوير لحالها مع طفلتها، والتي يصورها لنا، وكأننا نراها رأي العين، ماثلة أمامنا، يُسمعنا صوتها في نجواها وشكواها، إذ:

تقول يا رب! لا تترك بلا لَبَـــنٍ
هذي الرّضيعة وارحمني وإياهـــا

يا رب! ما حيلتي فيها وقد ذبلـــت
كزهرة الروض فَقْدُ الغيث أظماها

ما بالها .. وهي طول الليل باكيـــةٍ
والأم ساهرةٌ .. تبكي لمبكاهـــــا

يكادُ يتّقِدْ قلبي حين أنظرهـــــا
تبكي..وتفتح لي -من جوعها- فاها

ثم يعقّب الشاعر على هذا المشهد المفجع، الذي يهزّ المشاعر، ويستذرف الدموع من أقصى المآقي، يقول:

ويلمها طفلة باتت مُروَّعـــــةً
وبتُّ من حولها في الليل أرعاها

أي أن الشاعر لم يكتف بالرؤية والوصف، بل اتخذ موقفاً إيجابياً إزاء هذه الطفلة، وشارك في استنقاذها من يد البؤس والمسبغة، بما يستطيع من جهد، إلا أنها:

تبكي لتشكو من داءٍ ألمّ بهـــا
ولست أفهم منها .. كنه شكواها

ويُسدل ستار الختام بقوله أن الطفلة:

كانت مصيبتها بالفقر واحـــدة
وموت والدها .. باليُتم ثنَّاهَـــا

ويعقّب دكتور شوقي ضيف على هذه القصيدة بأنها بحق (لوحة رائعة لأرملة فقيرة .. تمزّقت عليها ثيابها، ولم يعد في ثدي الأم ما ترضع به ولديتها .. يا لبؤس الحياة، ويا لمرارتها، في فم الأم، بل في فم الرصافي، الذي راح يجلو لنا هذه الصورة الكئيبة"[1]. ولذلك يتوجّه الرصافي في قصيدة أخرى إلى الأغنياء يحثّهم على تخفيف آلام المنكوبين، وهو يؤنبهم بقوله[2]:

أيها الأغنياء قد ظلمتـــــم
نعم الله حيث ما إن رحمتـــم

سهر البائسون جوعاً ونمتـم
بهناء من بعدها قد طعمتـــم

---

1- دراسات في الشعر العربي العاصر د. شوقي ضيف، ط/ الخانجي، ١٩٥٩، ص ٤٣/٤٢.
2- المصدر السابق، ص ٤٦.

من طعام منوّع وشـــــراب

كم بذلتم أموالكم في الملاهي
وركبتم بها في متون السفـاه

وبخلتم منها بحق الإلـــــه
أيها المُوسِرُون بعض انتباه

أفتدرون أنكم في تبـــــابٍ

وكما نرى الشاعر يريد للناس جميعاً أن يكونوا في سعادة الغني يمنح الفقير، ويمسح بؤسه وشقاؤه.

***

## أطفال أشقياء في الظلّ:

وهناك أطفال أشقياء لم يُسعفهم الحظ ليكونون في دائرة الضوء، بل قضى عليهم سوء الطالع، أن يقبعُوا في قرارة الهوان، بعد فقد الأب أو الأم، أو كليهما معاً دون عائل أو راع، يعصمهم من سوء التنشئة والتشرد، ويصف الشاعر محمد إبراهيم نجا، أحدهم بقوله[1]:

---

1- مجلة الرسالة، عدد نوفمبر ١٩٥٠م.

يمشي على الرمل، رماه الهجير
بناره، حتى تراقى لظـــــاهْ
حيران .. قد أضناه طول المسير
ويشتكي، لكن تضيع الشكـــاهْ
ولم يكن يدري .. لماذا المسير؟
ولا إلى أين، ستمضى خطـــاهْ

إلى أن يقول:

وحين تعْوي الريح، مثل الذئاب
ويستبد البرد بالبائســـــــين
نراه يجري، هائماً، في الشعاب
يبحث عن مأوى قوي أمـــين

ويقول إبراهيم نجا:

ومرّت الأيام مثل الصَّـــدَى
معروفة الأول والآخـــــر
يماثل الغائب منها الغـــدا
والغائب المأمول كالحاضـر
والشارد المسكين يحيا سُدًى
كريشةٍ في عيلم زاخـــــر

***

ويقول على الجارم في وصف شريد آخر:

مشرداً يأوي إلى همّـــــهِ
إذا أوى الطير إلى وكْـــرهِ

ما ذاق حُلو اللثم في خَـــدِّهِ
ولا حنان المسِّ في شَعْـرهِ

ولا حَوَتْهُ الأمّ في صـــدره
ولا أبٌ ناغاه في حِجْـــرهِ

ثمّ يصوره أدق تصويره بقوله عنه إنه:

إن نام .. أبصرت به كتلـــة
تجمع بساقية إلى نحـــــره

(مدرسة النشل) وسلّ المُدى
أسّسَها الشيطان في جُحرهِ[1]

ثم يقول في ختام أبيات قصيدته تلك، ما عناه الشاعر الفرنسي "فيكتور هيجو" في ختام قصيدته آنفة الذكر:

---

1- مفردها مدية، وهي السكين.

البيت صحراء إذا لم تجـــدْ

طفولة .. تمرح .. في كِسرهِ

ولا شك أن "الجارم" أكثر إجادة من "نجا"؛ لأن "نجا" نظر إلى الشريد من بعيد، ووصف تقلبه في الهجير، ثم في الزمهرير، وافتقاده للمنزل الذي يأوي إليه.

أما الجارم فقد تغلغل إلى الحقيقة المرّة، في انعدام حنان من يأخذه في أحضانه الدافئة، ويلثمُه محبّة واعتزازاً، كما افتقد الشريد مَنْ يمسح على رأسه، كاليتيم مثلاً، كما افتقد حنان الأمومة وحَدَب الأبوة في مناغاة الطفل وهو يحمنه في حجره مناغياً ومدللاً.

ثم أعطانا الجارم، بعد ذلك صورة هذا المسكين أثناء نومه، وقد تكوّر على نفسه، وجمع ساقيه إلى نحره التماساً للنوم في العراء، وافتقاده للغطاء من برد الشتاء..ثم يصور الطفل الشريد وتعرضه لأبناء السوء، الذي يهاجمون ضحاياهم بإشهار المُدي في وجوههم؛ لسلب ما معهم من نقود، وما يتلو ذلك من تعرضهم للإلقاء بهم في غيابات السجون.

أما البيت الأخير الذي قارناه ببيت "فيكتور هيجو" فإنه لا يقلّ روعة عن بيت هيجو، الذي يصور مدى افتقار البيت،

الذي يخلو من صخب الأطفال ومرحهم وصياحهم، بأنه بمثابة الصحراء الجرداء، إذ يخلو من لثغة الطفل وحُبُوره، وما يشيعه من بهجة، وانشراح، يدفعنا إلى أخذه في الأحضان بنشوة وانتعاش.

ويقول الشاعر "عامر محمد بحيري"، في قريب من هذا المعنى، بحبس حرية الطير، بوسيلة أو بأخرى، فقال بعنوان (في ظلام الأسر) يقص قصة طائر .. في قفص من ذهب:

مَرَّ طفلان عليه غـــــدوةً
فأحبا أن يغنّي لهمـــــــا

سألاه ذاك رفقا .. فأبـــــى
وأشاح الوجْه يخفي الألمـــا

حسباه مُعرضاً مستحقـــــراً
وهما -من صغرهما- ما علما

فرماه كلُّ غِرٍّ حَجـــــــرًا
حُرْمة الدار -عليه- اقتحتمـا

وكذلك الحال بالنسبة للطفل الشريد، يطلبون منه الإفصاح عما انتهى إليه، من تقييد حريته .. والسبب في ذلك، الذي يتعين أن يُدركوه، هو حبس حريته في اختيار من يكفله ويرعاه، ويقيله من عثرته وبلواه.

***

وعن فقد الطفل الصغير لأمه، يقول "محمدبن عبدالملك الزيات" في وصف حالة ابنه بعد فقد نبع الحنان، بوفاة والدته، فيقول:

ألا من رأى الطفل المُفارق أمه
بعيد الكرى .. عيناه تبتـــدران
رأى كل أم وابنها -غير أمـــه-
يبيتان، طول الليل، ينتحبـــــان
وبات وحيداً، في الفراش ..تحتّه
بلابل قلب، دائم الخفقـــــــان

إلى أن يقول:

فهَبني عرفت الصبر عنها .. لأننـــي
جليد .. فمن بالصبر لابن ثمـــــان
ضعيف القوى،لا يحسب الأجر حسبة
ولا يأتسي بالناس في الحدثـــــان

وهذا وصف دقيق وصادق، في تصوير حالة الطفل اليتيم، الذي لا يستطيع أن يصور حياته ووجوده بغير حنان أمه، ويوازن بين حالته وحالة الابن الهانئ، الذي يبيت في حُضن

أمه، تناجيه وتحاكيه.. ثم تبرز ذاتية الشاعر، بقوله: إنه لو أتيح له الصبر - أو التصبر، فكيف يتاح هذا الصبر لطفل صغير في الثامنة من عُمُره لا يعرف معنى الصبر والسلوان، لاكتساب الأجر، بعد وقوع هذه المصيبة في ساحته. وخير من يصوّر هذه الحالة، ويصف أبعادها هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، الذي يقول في وصف حالة الطفل الذي ماتت أمه[1]:

"وشعر بالذل ينساب إلى قلبه الصغير، لأن تلك التي كان يملك فيها حق الرحمة، قد أخذت منه، وتركته بلا حق في أحد، وليس لأحد أمَّان!، ولبسته المسكنة؛ لأن له شيئاً عزيزاً أصبح وراء الزمان، فلن يصل إليه.. ونهض الصغير، ولم ينطق بذات شفه، نهض يحمل رجولته التي بدأت منذ الساعة!".

ويصف الرافعي أيضاً طفلة في المهد، ماتت أمها وهي تضعها، فيقول عنها إنها: "طفلة ولدت صارخة، لا صرخة الحياة، ولكن صرخة النَّوْح والنَّدْبِ على أمِّها.. صرخة ترتعد، كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذي يُدفئها"[2].

***

1- من وحي القلم، للأستاذ/ مصطفى صادق الرافعة، الطبعة الثانية، دار المعارف، ١٩٨٢م.
2- المصدر السابق، ص ١٧٤.

ولعلّ ما يُخفف الأشجان التي أثارها فقد الطفل لأمه، أن نروي قصة أخرى؛ نتعاطف فيها مع طفل اتفق له أن يخوض وحلاً شمل الطريق بعد المطر الشديد، وقد روى لنا هذه القصة الشاعر السعودي حسن عبدالله القرشي، في قصيدته التي تحمل عنوان (طفل!!) بقوله يصوّر حالته[1]:

- وجري يُخوِّض في الوحول
- طفل صغير
- يبكي .. كما بكت السماء
- يبكي، وكم زلت هنا قدماه فارتاع الصغير
- يكي: أبي .. أمي .. لقد ضلّ الطريق
- ويصيح: قد ضاعت نقودي بعدما ابتلّ
- الإزار .. إني مُضاع .. إني مضاع! .."

ثم يقدم القرشي لفتة شعورية إنسانية، حينما يستتلي قائلاً:

- وعجلت أسرع للصغير
- لا تبك إني قد وجدت لك النقود

---

1- ديوان (الأمس الضائع) للشاعر حسن عبدالله القرشي، ط ١٩٦٨، ص ١٤٣.

- قل: ـمن أبوك؟ فلم يقل .. بل راح ينتقد (الفلوس)
- ويَعُدُّها .. جذلان .. في فرح مثير.

ثم يقدم الشاعر لنا لفتة أخرى، وهى التي تصور لنا أنه قد أعطى للطفل نقوداً أكثر من التي ضاعت، لأنه لا يعرف على وجه التحديد قيمة المبلغ الذي ضاع من الطفل، واتفق للشاعر أنه أعطى الطفل مبلغاً يزيد عن المبلغ الضائع، الأمر الذي جعل الطفل يصيح ببهجة وسرور، وهو غير مصدق:

- عمَّاه! قد زادت نقودي في الطريق!

ثم يستكمل الشاعر قصته الطريفة هذه الذي جذب انتباهنا إليها، بقوله:

- وأتى أبوه .. حيران ترهقه الوحول
- قد شفه بُعد الصغير وكاد يُؤسُه انتظار
- ويل الكبير من الصغير
- وَعَدا الوليد إلى أبيه:
- أبتاه ـ قد وجد النقود
- لم يبق إلا الثوب يا أبتاه .. فيه أذًى وطين
- خُذني إلى أمي لتغسل لي الثياب

- أو سوف تضربني؟! .. وعاد إلى البكاء ..

وفي هذا البيت الأخير تصوير عفوي طريف لموقف الطفل الذي يقع في مثل هذا المأزق، فيتساءل بخشية وبراءة عما سيكون موقفه أمام أمه، وهل سيناله عقابها، إلا أن الوالد الشفوق يفرغ روعه ويطمئنه، ويطمئننا نحن أيضاً، حين يقول الشاعر مستطرداً:

- وَحَنَا أبوه عليه في وَجْدٍ كبير:
- كلا .. لسوف تسرّ يا طفلي العزيز
- ولسوف تلبسك الجديد!
- ومضى يرافقه أبوه
- رغم الوحُول
- جذلان يهتف: عِمْ مساء ..

ولا شك أن (عِم مساء) قالها الأب لعابر السبيل المنقذ للطفل، بتعويضه عن مبلغه المفقود .. وهكذا نجد الشاعر حسن عبدالله القرشي قد استطاع بمفردات لغوية بسيطة، أن يقنعنا بواقعية (القصة) أو الحادثة التي يرويها لنا .. عما يلاقيه الطفل في حداثته من مآزق.

***

# الطفولة السعيدة ومباهجها

وخير من يمثل لنا المسرّات الطفولية ومظاهر اللعب و(الشقاوة) لدى صغارنا هي قصيدة شوقي التي تحمل عنوان (مصاير الأيام) والتى يتحدث فيها عن ذكريات الطفولة، فيقول [1]:

ألا حبَّذَا صُحبةُ المكتـــــــب
وأحبب بأيامه ..أحبـــــــب

ويا حبذا صبية يمرحـــــــــ
ـون عنان الحياة عليهم صبـــي

كأنهمو بسمات الحيـــــــــا
ة وأنفاس ريحانها الطـــــيب

إلى أن يقول إنهم:

فراخٌ بأيْكٍ، فمـــــــن ناهـــ
ـضٍ يروضُ الجناح ومن أزغب[2]

---

1- الشوقيات، جـ٣، ص ٢٤٠/٢٤١/٢٤٢.
2- أزغب: صغير ذو زغب لم يكتمل ريشه.

عصافير عند تجهي الـــــدرو

س، مهارُ عرابيد في الملعـــب

خليّون من تبعات الحيـــــــا

ة، على الأمِّ يلقونهـــــا والأب

ثم يقول، بعد ذلك واصفاً حالة الصغار حينما يدقّ جرس المدرسة، مؤذناً بانتهاء اليوم الدراسي، وسراحهم من مشقة الدراسة في مثل سنهم، وتوقهم إلى الانطلاق إلى اللهو واللعب، وهي حالة طبيعية لدى الأطفال الصغار .. يقول شوقي:

لهم جَرَسٌ مطرب في السـراح

وليس إذا جدّ بالمُطـــــرب[1]

ثم يصف ملابس الأطفال، المادية والمعنوية، يقول:

جميل عليهم قشيب الثيـــــا

ب وما لم يجمل ولم يقشـــب

كساهم بنان الصبا حُلـــــةً

أعزّ من المخمل المذهـــــب

---

1- السراح: الخروج من المدرسة، جدك استمر في الدق.

وأبهى من الورى تحـــت الندى
إذا رفّ في فرعه الأهـــــدب

***

أما عن ضحكات الطفولة البريئة، الصافية يحدثنا الشاعر "محمد تيمور"، بقوله[1]:

طفل أتاني ضاحكاً ..فرأيت من
ضحكاته: وجه الحياة تبسَّمَـــا

أصغي لها وكأنني مستقبـــــل
في ظلمة الليل البهيم الأنجُمـــا

لو كان يسمعها مليك ظالـــــم
لبكى على أحْكامه متندِّمَـــــا

أو كان يرسمها المصوِّرُ خِلْتَهـا
لجمالها-: وشْيَ الربيع مُنَمْنَمَـــا

والشاعر المطبوع يحسب أنهـــا
ألحان طير في الرياض ترنَّمَـــا

---

1- محمد تيمور: حياته وأدبه، للأستاذ محمود تيمور (ب.ت) طبعة الهيئة العامة، ص ٩٤.

وكأنها كغدير ماءٍ بـــــــاردٍ

يُطفئ به الظمآن نيران الظَّمـــا

وتُعيد في قلب الكبير شبابـــــه

وتزيده في كل يوم أنْعُمَـــــــا

وتردُّ في بيت الحزين شموســـه

فكأنه من قبل لم يكُ مُظلمـــــا

***

أما الشاعر "عمر بهاء الدين الأميري" فيصور لنا أحلى أوقاته عندما كان مع أطفاله وأسرته في المصيف .. وكانوا يملأون حياته ضجة .. وحركة - ثم سافروا جميعاً إلى بلدهم "حلب" .. ومكث وحده .. وقد أصمت كل ما حوله، فقال[1]:

أين الضجيج العذب والشغـــب

أين التدارس شابه اللعـــــب

أين الطفولة في توقدهـــــا

أين الدّمى، في الأرض،والكتب

---

1- مجلة الشعر، العدد ٢٣، السنة السادسة، يوليو ١٩٨١، مقال مكتبة الشعر، د. محمد حسن عبدالله، ص ١٠٧ وما بعدها.

أين التباكي والتضاحك فـــي
وقت معا، والحزن والطـــرب

أين التسابق في محاورتـــــي
شغفاً، إذا أكلوا وإن شربـــوا

يتزاحمون على مجالستـــــي
والقرب مني حيثما انقلبـــوا

يتوجهون بسوق فطرتهـــــم
نحوي، إذا رهبوا وإن رغبُـوا

فنشيدهم "بابا" إذا فرحُـــوا
ووعيدهم "بابا" إذا غضبـُوا

وهتافهم "بابا" إذا ابتعـــدوا
ونجيّهم "بابا" إذا اقتربـــوا

وهذه القصيدة لقيت رواجاً واستحساناً في ندوات الشعر، ومحافلـه، لمـا فـيها مـن شـفافية الإحسـاس ورهافـة العاطفـة الفطرية العميقة التي تنمّ عن عاطفة الأب نحو أبنائه، فمثلاً نلاحظ في أبياتها بساطة الصياغة والتركيب ووضوح العاني في تصوير الأطفال بحركاتهم البريئة العفوية، وعباراتهم الغير مكتملة.

والقصيدة تعدّ تعبيراً عن لحظة شعورية عاشها الشاعر، وتدل على صدق التجربة، ونشعر بهذا الصدق من أول بيت فيها عندما يكثر من تساؤلاته (أين) المتكررة التي تأتي إجاباتها في قول الشاعر:

بالأمس كانوا ملء منزلنـــــا

واليوم، ويح اليوم، قد ذهبــوا

ذهبوا، أجل ذهبوا ومسكنهــم

في القلب، ما شطّوا ما قرّبــوا

إني أراهم أينما التفتـــــــت

نفسي، وقد سكنوا وقد وثبــوا

في كل ركنٍ منهم أثـــــــر ..

وبكل زاوية لهم صخـــــــب

في الصحن، فيه بعض ما أكلوا

في علبة الحلوى التي نهبـــوا

ويستمر الشاعر في تصوير مشاهد لهؤلاء الأطفال في البيت من خلط الجدّ باللعب، والضجيج والشغب.

واختار الشاعر لأبياته قافية الباء التي تساعده على تصوير ملاعب الأطفال وحركاتهم الساذجة، والمعروف أن أول حرف ينطق به الطفل هو (الباء) بترديده الكلمة "بابا"

مثلما سبقه في ذلك أمير الشعراء "أحمد شوقي" في قصيدته سالفة الذكر (ألا حبذا صبية المكتب".

وما أروع قول الشاعر مصوراً الاستقبال الذي يلقاه الأب العائد إلى منزله، بعد عمل اليوم وأوصابه:

يلقاه عند الباب كل عشيـــة
أطفاله .. من واثب، ومغرد

***

## الطفولة وإلهامها للشعراء ساعة الموت والحداد:

وعلى العكس من أبيات الشعراء السابقين المتفائلة، نجد الشاعرة "جليلة رضا" تجأر بالشكوى من ابنها الوحيد الذي فقد عقله في سن السابعة من عمره، وظهرت عليه أعراض الجنون بصورة مؤلمة مقلقة، فقالت تناجيه[1]:

بُنَيَ قُديت بالعُمُر القصـــــير
فخذ ما شئت من عهد السرور

بُنَيَّ جعلتني أهوى بقائـــــي
فعشت لغصنك الغض النضير

وجرَّعَنِي الزمانُ كئوس هــمٍّ
وضَنَّ عليَّ بالعيش القريـــــر

ولكني سقيتك ماء قلبـــــــي
وجدت عليك بالحب الوفـــير

بُنَيَّ جعلتني أشقى بعيشـــــي
ففاض بي الشقاء مع الشعـــور

---

1- ديوان اللحن الباكي، للشاعرة "جليلة رضا"، ص ٤٦، طبعة مكتبة الخانجي، ١٩٥٤.

وددت لو استطعت..نقلت عقلي
إليك به يقيك من الكثيـــــــر

فمن يرعاك بعدى يا وحيـــــدي
وما هو مستجد من مصـــــير؟

إلا أن الله عز وجل رحمها، ورحم ابنها، فقضى قضاءَه في ابنها، فرحل إلى جوار ربه قبلها، فقالت في نعيه[1]:

ها هي الشمس توارت
في دماها غارقـــــه

وهي على الأفق غيوم
جاثيات خانقـــــــه

ناشرات فـــــوق ذاك
السمت أكفان الفنـــاء

ولا ننسى شاعر مجيدة مثل الشاعرة "عائشة التيمورية" في مرثيتها عميقة الأثر في النفوس، وقد نظمتها بعد رحيل ابنتها الصغيرة (توحيدة) واستخدمت أسلوب الحوار المؤثر

---

1- كتاب أنتم الناس أيها الشعراء، للأستاذ أنيس منصور، طبعة ١٩٨٩، ص ١١، ١١٢.

البليغ، مع ابنتها التي كانت قد انتقلت إلى رحمة الله تعالى، قالت[1]:

لبست ثياب السقم في صِغرٍ وقد
ذاقت شرابَ الموت وهو مريرُ

إلى أن تقول :

لما رأت يأس الطبيب وعجزه
قالت - ودمع المُقلتين غزيرُ:

أماه .. قد كلَّ الطبيب، وفاتني
فما أؤمِّلُ في الحياة نصيرُ

لو جاء عرَّافُ اليمامة يبتغي
بُرئي لـرَدَّ الطرف وهو حسيرُ

أمَّاهُ قد عزَّ اللقاء وفي غدٍ
سترين نعشي كالعروس يسيرُ

وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي
هو منزلي، وله الجموع تصيرُ

والقبر صار لغُصْن قدِّي روضةً
ريحانها -عند المزار- زهورُ

---

1- ديوان حلية الطراز، طبعة القاهرة، ١٩٥٢، ص ٢١٩.

ثم تبرز ذاتية الشاعرة الثكلى، فتقول رداً على محاورة ابنتها:

فأجَبْتُها ـ والدمع يحبس منطقـــي
والصفو ـ من بعد الجوار ـ يجور

إني ألفتُ الحزن حتى إننـــــي
لو غاب عني .. ساءني التأخير!

ثم تقول ما يحزّ في النفس، ويهزّ المشاعر:

قد كنت لا أرضى التباعد برهة
كيف التصبّر .. والبعاد دُهور!

إن قيل (عائشةٍ) أقول لقد فنَـــى
(عيشي) وصبري.. والإله خبير

***

حقاً: إذا كان الأبناء هم فرحة الدنيا، فإن فقدهم هو المصيبة التي تقصم الظهر، وتستنزف الدموع .. وقد حفل الشعر العرب على مرّ الأزمان -قديمه وحديثه- برثاء الأبناء ..

وهناك شاعر مهجري هو "جورج الكعدي" وكان يقيم في أمريكا الجنوبية، ففجعه القضاء في صغيرته "ثريا" وعمرها لا يتجاوز الثلاث سنوات، رثاها ببعض شعره الحزين، وقد أودعه في ديوانه (الكعديات) وفيه يقول[1]:

لم يبق لي أمل بشـــــيء
بعد موتك يا "ثريـــــا"
قد كنت بهجة والـــــد
هزت قوافيه الثريـــــا
قد كنت ملء جوانحـــــي
أملاً من الآمال حيـــــا
كيف انطويت كزهـــــرة
ملأت حواشي الروض ريا
يتمت والدك الأديـــــب
فلم يعد يشتاق شيـــــا

---

1- جوانب مضيئة من الشعر العربي، بقلم: محمد عبدالغني حسن، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٢، أولى، ص ١٧.

***

## الزيات ورثاؤه لطفلة:

وللزيات، صاحب مجلة "الرسالة" مقال بالغ الأسى في رثاء طفله (رجاء) وهو في ربيعه الرابع، فيئنّ الزيات أنيناً مُوجعاً، وهو يستنجد بقارئه، يلتمس منه العزاء، حين، يقول:

"يا قارئي أنت صديقي فدعني أرقْ على يديك هذه العبرات الباقية، هذا ولدي كما ترى - وأثبت صورة طفله الصغير أمام هذه العبارة- ثم استتلى يقول: رزقته على حال عابسة كاليأس، وكهولة بائسة كالهرم، وحياة باردة كالموت، فأشرق في نفسي إشراق الأمل، وأورق في عودي إيراق الربيع، وولد في حياتي العقيمة معاني الجدّة والاستمرار والخلود".

إلى أن يقول بالتياع مُذيب: "شغل (رجاء) فراغي كله، وملأ وجودي كله، حتى أصبح شغلي ووجودي، فهو صغيراً .. أنا، وأنا كبيرا .. هو، يأكل فأشبع، ويشرب فأرتوي، وينام فأستريح، ويحلم فتسبح روحي وروحه في إشراق سماوي من الغبطة لا يوصف ولا يحدّ.

إلى أن يقول: "ثم انقضت تلك السنون الأربع، فصوحت الواحة، وأوحش القفر، وانطفأت الومضة، وأغطش الليل، وتبدد الحلم، وتجهّم الواقع، وأخفق الطب، ومات رجاء...".

وقد أبدع الزيات مقالاً من روائعه، بعد ذلك بعنوان (محمد الوالد)[1]، أثبت في مستهله هذه العبارة: إن في حزن القوي عزاء لجوع الضعيف، واستهل المقال بقوله:

"تخطفت المنايا السود فلذات الرسول: بنات بعد بنين، فلم يبق إلا فاطمة قرة لعينه، وعزاء لنفسه، وكانت جراحات القلب العظيم لا تجد لمسها المحض فراغاً بين آلام الرسالة، فتندمل في سكون وصمت..

وفي ختام المقال، يصرح بقوله: "تعز بيت يا رسول الله، لأن الألم في سبيل من سبق دعوتك، والعزاء أصل من أصول دينك، والأرض وما عليها أهون من دمعك، والسماء وما فيها ثواب لصبرك".

وفي وقع موت ابن الزيات، وتأثر الشاعر محمود غنيم به، وبرثاء الزيات له قال محمود غنيم:

راح كأن لم يولـــد  يا ليته لم يولـــــد

---

1- مجلة الرسالة، عدد ٢٠ إبريل ١٩٣٦.

ما اليتم فقد والـــــد  اليتم فقد الولـــــد

الخطب غير رهين  والصبر غير مسعد

ثم لا يلبث أن يلتفت إلى الطفل الراحل ليناجيه بقوله:

يا عزة الفرقد هلا عـ  شت عمر الفرقـــــد؟

عيد الربيع قد أتـــــى  مالك لم تعتـــــد؟

ولمَ لمْ تبسم لـــــه  عن لؤلؤ منضّـــــد؟

ورغم ما يشيع في البيت الأخير من بعض التأسي؛ نجد الشاعر سُرعان ما يشدنا ويبصرنا بهول المصيبة التي يحاول -عبثاً- أن يجد ما يتعزّى به، في خضمها .. فيستتلي قائلاً:

ما فعلت نسمتُـــــه  بخدّك المُـــــورَّد؟

يا أيها العصفور قـــم  بين الرياض غـــرّد

قم واملإ البيت نشـــا  طاً، بين لهـــو ودد[1]

ثم يلتفت إلى الزيات، فيتحدث عنه، بقوله:

أعزز على أبيـــك أن  تصمت صمت الأبـــد

ويح البنين ويحهـــم  في الموت أو في المولد

تخطفهم يد الـــردَى  ونحن مكتوفو اليـــد

---

1- الدد: المرح.

ثم يلتفت في ختام القصيدة، إلى صديقه الأديب الكبير "الزيات"، بقوله:

ما في مصائب أحمدٍ إلا يراع أحمـــــد

## أطفال الحجارة:

بعد أن هبّ شعب فلسطين المجاهد، ليردع البغي ويسترد الحق المغتصب، رفض أطفال فلسطين إلا أن يكون لهم دورهم في ساحة القتال، بالقدر المتاح من السلاح (الحجارة)، بعد افتقادهم لآلات الحرب من (طائرات، ودبابات، ومصفحات، وأحدث الأسلحة) فهذا المتاح (الحجارة المتناثرة في شتى الأنحاء) يلتقطونها من الأرض ليقذفوا بها المعتدين المتغطرسين والشرسين الصهاينة دفاعاً وتعبيراً عن السخط والثورة والغليان وليت هذه الحجارة كانت من (سجيل منضود) مسوّم على الطغاة، يتعاون في إلقائها طيراً أبابيل، كما حدث لأصحاب الفيل؛ لتشد من أزر الصبية والأطفال الأغرار الأبرار، وتحقق أهدافهم وتشفي صدورهم.. وقد انفعل الشاعر "أحمد حسن القضاة" فقال عن طفل الحجارة الذي يرشق جبروت إسرائيل:

ذا طفل (النكسة) في غضبٍ

قد شمر مرفوع الـــــرأس

من أجل (عيون) قضيتـــــة

هجر (الأستاذ) مع (الدرس)

وانضم لزمرة ثورتـــــــه

فكأن انضم إلى )عُـــرس)

ثم يتساءل:

من يجرؤ يخمد بركانـــــاً

يغلي .. من يقدر من إنْـــسٍ؟

مَنْ يحبس طيراً في قفـــصٍ

ليكف غناه .. بالحبْـــــــسِ؟

فالقادم القادم من رحم الأحزان وكفف الآلام، كما يقول - الشاعر الفلسطيني رجا سمرين- ويعيد الكفاح كتابة أسفار التاريخ، ورسم خيوط أرض المحبة والإباء: والبداية الحقيقية لمأساة أطفال الحجارة هي بداية مأساة شعب فلسطين والتي انطلق رصاصها في صيف ١٩٤٨م مدوياً في سماء قرى ومدن فلسطين، ومنذ ذلك الوقت أصبح الطفل محروماً من الأشياء واللغة التي تميزه عن الكبار سوى كلمات الاحتلال، الصليب الأحمر، اللاجئون، ومن وقتها والطفل الفلسطيني

نفسه يخوض المعركة المستمرّة مستعملاً فيها كلّ الأسلحة بمافيها الشعر الذي قام بدور عظيم في الصمود والتحدي واحتقار الظلم ونموذجنا الشعري السابق خير مثال لذلك[١].

****

## ذكريات الطفولة في مخيلة الشعراء:

للشاعر المهجري "إيليا أبو ماضي" قصيدة متفردة عن ذكريات الطفولة، تستحق أن نقف أمامها ملياً، لنتأمل كيف وفق إلى تصوير مرحلة مبكرة من عُمُره، أروع تصوير، بقصيدته التي تحمل عنوان (وطن النجوم) ويستهلها بقوله[٢]:

وطن النجوم أنا هنا ... حدِّق .. أتذكر من أنا

ألمحت في الماضي البعـ ... ـيد فتىً غريراً أرعنا

جذلان يمرح في حقـ ... ـلك كالنسيم مُرنزنا

فهو يخاطب وطنه (لبنان) التي تخلو سماؤه من الغيوم، وتتلألأ فيها النجوم، لشدة الصفاء.. ويلح على هذا الوطن في الرجاء أن يحدق بشدة، وليس بالنظرة العابرة، في هذا الفتى العائد إليه من الغربة متلهفاً، ويرجو أن يتعرف عليه الوطن،

---

1-ينظر: مجلة الطريق العددان، ١٠/١١، السنة ٢٧، ١٩٦٨، مقالات عن أدب المقاومة في فلسطين، للشاعر: محمود درويش وسميح القاسم.

2- جوانب مضيئة من الشعر العربي.

بعد طول عهد في الغربة، وكأن هذا الوطن حبيب يناجيه بعد طول الغياب، ولفظه (حدّق) هنا ذات دلالة وإيماءات وحث على تصويب البصر بشدة، للتعرف على هذا الطفل العائد إلى أحضانه، بشوق..

وزيادة في التذكر يذكر له أنه ذلك الفتى الأرعن الغرير الذي كان يجوسُ خلال الديار منذ عهد بعيد، وهو جذلان يرتع في الحقول بمرح وسرور، وهو يدندن بالأغاني وكيف لا؟!، وهو الشاعر الغرير منذ نشأته.

ويستكمل بعد ذلك من تذكره لوطنه بأنه هو الطفل الذي كان:

يتسلق الشجار لا ضجراً يحسّ ولا ونى

أي أنه كان دائب الحركة في تسلق الأشجار بهمّة لا تَعرف الكلل، ليعود بأغصان يصنع منها السيوف الخشبية التي تعرفها الطفولة[1]، وهو لا يعبأ بشيء:

ويخوض في وحل الشتا متهللاً متيمناً

---

1- وكأنه ينظر إلى قول الشاعر الأسباني "لوركا" الذي يقول في نشيد له:-
أسأل الله أن تعيد لي قبعة الريش وسيف الخشب
أسأل الله أن يعيد لي روح طفولتي القديمة العذبة
- الحافلة بالأساطير: يعيد لي قبعة الريش وسيف الخشب.

ولا يبالي حين يخوض في وحل الشتاء، وهو متهلل الأسارير:

ولكم تشيطن كي يقو ل الناس عنه "تشطينا"

أي كان يُبدي شقاوة كبيرة، ليلفت الأنظار إلي بأنه الجريء المقتحم .. ثم لا يلبث أن يؤكد تعريف نفسه بنفسه قائلاً:

أنا ذلك (الولد) الذي دُنياه كانت ها هنا

وللناقد النابه أنور المعدّاوي دعوة "كي نقف طويلاً لتطرق الأبواب الشعورية الضخمة في كلمة (ولد) .. لو قال أبوماضي، مثلاً: أنا ذلك الطفل، بدلاً من أنا ذلك الولد، لغدت اللفظة عادية، لا تثير في النفس شيئاً من المشاعر والأحاسيس .. ولو قال: مثلاً (أنظر) بدلاً من (حدق) لبدت اللفظة مغرقة في المادية، فلا إشعاع ولا إيحاء"[1].

ونمضي مع الشاعر إيليا في تفننه، حيث يستطرد قائلاً:

(١١) أنا في مياهك قطرة فاضت جداول من سنى

(١٢) أنا من ترابك ذره ماجت مواكب من منى

(١٥) كم عانقت روحي ربا كِ وصفقت في المنحنى

---

1- نماذج فنية من الأدب والنقد، طبعة ١٩٥١، د. أنور المعداوي.

ولا يبالي حين يخوض في وحل الشتاء، وهو متهلل الأسارير:

ولكم تشيطن كي يقو ل الناس عنه "تشطينا"

أي كان يُبدي شقاوة كبيرة، ليلفت الأنظار إلي بأنه الجريء المقتحم .. ثم لا يلبث أن يؤكد تعريف نفسه بنفسه قائلاً:

أنا ذلك (الولد) الذي دُنياه كانت ها هنا

وللناقد النابه أنور المعدّاوي دعوة "كي نقف طويلاً لتطرق الأبواب الشعورية الضخمة في كلمة (ولد) .. لو قال أبوماضي، مثلاً: أنا ذلك الطفل، بدلاً من أنا ذلك الولد، لغدت اللفظة عادية، لا تثير في النفس شيئاً من المشاعر والأحاسيس .. ولو قال: مثلاً (أنظر) بدلاً من (حدق) لبدت اللفظة مغرقة في المادية، فلا إشعاع ولا إيحاء"[1].

ونمضي مع الشاعر إيليا في تفننه، حيث يستطرد قائلاً:

(١١) أنا في مياهك قطرة فاضت جداول من سنى

(١٢) أنا من ترابك ذره ماجت مواكب من منى

(١٥) كم عانقت روحي ربا كِ وصفقت في المنحنى

---

1- نماذج فنية من الأدب والنقد، طبعة ١٩٥١، د. أنور المعداوي.

ثم يطلب منا أن ننظر:

(١٨) للشمس تبطئ فـــي ودا ع ذراك كي لا تحـزنا

و:-

(١٩) للبدر في نيسان يكـــ حل بالضياء الأعيـنا

(٢٠) فيذوب في حدق المهـا سحراً لطيفاً ليّنـــاً

ثم:-

للحقل يرتجل الـــروا ئع: زنبقاً أو سوسنـــاً

إلى أن ينتهي إلى قوله:

حتى انكشفت له فألقـــ ـى رحله وتوطنـــا

واستعرض الفن الجبال فكنت أنت الأحسنـــا

***

ونمضـي بعـد ذلـك إلـى الـناقد "المعـدّاوي" كـيف حلّـل واستبطن المعاني السرية، للألفاظ التي وضعنا تحتها خطوطاً في هذا النص العبقري، يقول:

إن الألفاظ هنا قد اختيرت في مواطنها الأصيلة لتؤدي دورها الأصيل في إرسال الموجات الصوتية المعبرة عن واقع الهزات المنبعثة من الوجود الداخلي.

وانظر إلى كلمتي (فاضت، وماجت) في البيتين الحادي عشر والثاني عشر، وإلى كلمتي (عانقت، وصفقت) في البيتين الخامس عشر - لترى مبلغ الإثارة الوجدانية في الصورة الوصفية، وقل مثل ذلك عن البيت الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، عندما نضع في بوتقة الشعور كلمة (تبطئ، ويكحل، ويذوب) وأقم الميزان، كل الميزان. لهذا الحقل الذي يرتجل الروائع: من الزنبق والسوسن، ولهذا الجمال الذي (شرد) في شعاب الأرض، يلتمس المأوى، حتى إذا ظفر به (ألقى رحله) واستراح، ولا تنسى بعد ذلك الفن الذي استعرض الجبال، ليختار أحسن الأوطان"[1].

إلى أن يقول: (أنك لتحس من هذا الجو الذي ترسمه ريشة الشاعر، على لوحة الشعور، إنك قد ثقلت نقلاً على جناح الخيال إلى هناك، إلى ذلك الأفق البعيد المُوغل في طوايا الزمن .. وإذا أنت في كل بيت من أبيات "أبي ماضي" تكاد تلمح طفلاً يتوثّب مرحاً ونشاطاً وحيوية، طفلاً يخيل إليك أن كل نقلة من نقلات الإيقاع الموسيقي، هي وقع الخطى من قدميه الصغيرين"[2].

---

1-المصدر السابق، ص ٣٤.
2- نفسه ص ٣٥.

وننتقل إلى المازني ونعرض قوله الذى يصف فيه شأنه في طفولته، بقوله أنه:

يضاحك ثغري كل ثغر، تـــــوداً
ويبدي حناناً .. من يراني شاكيـــاً

ويلقي بي الناس السرور كأنمـــــا
تبارى الورى .. كي يبلغوني مراديا

إلا أنه عاد بعد ذلك، حينما اشتدّ عوده وكبر، فقال:

قد صرت غيري، فليس يعرفني
إذا رآني صباتي ذو الطُـــــرر

مات الفتى المازني، ثم أتـــــى
من (مازنٍ) آخرُ على الأثـــــر

وعن ذكريات أيام طفولته، يحدّثنا الشاعر "أحمد مصطفى حافظ" بقوله عنها:

في أفق خيالات حياتـــي
وبلفح الحاضر .. والآتي

تنثال رؤى .. تستغرقني
وتظل تمازج خلجاتـــي

لطفولة عمرى، فردوسى الـ

مفقود .. سنا إشراقاتـــي

بغيوم حياتي، تـــتراءى

كنجومٍ تسطع في ذاتـــي

لأطير بفكري، لعهُـــودٍ

كم سرتني في غفلاتـــي

ثم يصف بدقة، شخصه حينما كان ما زال طفلاً صغيراً يلقى من الحب والرعاية، الكثير من التدليل والترقيص:

فأراني في مهدي طفـلاً

قد شاق الكلّ بلثغـــات

وأبي مهد لي .. (ركبته)

أتسلقها .. كالصهـــوات

وأشب عليها كـ (حصان)

أعلوها بريثٍ وأنـــــاة:

.. أرجوحة عِزٍّ قدْ ولـــى

تغدو وتروح بلثمـــات

والأم تهدهدني شغفـــاً

وتناغيني .. في الضَّمَّات

وتود لثوبي تطريـــــزاً
بالعسجد أو بالماســـات

ثم يسترسل إلى وصف ما آل إليه حاله، بعد عهد الطفولة الحالم، الذي يخلو من أية متاعب أو مسئوليات، بعد أن نأى عنه، ذلك العهد، الذي لا يعود:

يا ليت زمان لم يمـــرق
كالسهم، أو البرق العاتِـي

- بختام مطافي، واحدتـــي
وشريكة عمري، ومرآتي

رفتْ في خفر وحيـــــاءٍ
وسرت .. كرقيق النسمات

ويتم النعمة بنتانـــــــا
قمران أضاءا ظلماتـــي

الكبرى لي .. قرة عـــين
والصغرى .. بهجة أوقاتي

فردوسي المفقود، تبـــدّى
فيهنّ .. وجَمَّعْنَ شتاتـــي

ثم يلتفت إلى الطفوله بمعناها الأشمل والأسمى فيقول في ختام قصيدته تلك:

أطفالي .. فرصتنا الأخرى
بمجال كفاح وحيـــــاة
بالتقوى نشء الجيل يُـرى
في الذروة .. بالخير يواتي
نعماء الدين لهم حصـــن
ليقيهم شر العـــــثرات
ومكارم أخلاق تُرجـــى
بالقدوة .. من فيض هِبـات
بعطاء غني لفقـــــير
قد ذاق حلاوة إخبـــات
ما أعظم جيل .. نشأتـــه
طابت .. لصيام وصـــلاة
بتعاونهم، وتآذرهـــم
وتنافسهم .. في الخـيرات

***

وإذا انتقلنا إلى الشاعر السعودي "طاهر زمخشري" نراه يصوّر لنا ذكريات الطفولة ومتراع لهوه في قوله بقصيدته التي تحمل عنوان (شراع الذكريات) حيث تعود به الذكرى إلى أيام طفولته ومغانيها الجميلة بعدما يعروه الحنين وتمُوج به اللهفة، فيقول[1]:

أين يا ربع -بعد زحف العوادي
مرتع- كان مخصب الجنبـــات

أين بيض المُنى بسود الليالـــي
أين ملهى الهوى .. وأين لِداتـــي

وذلك حيث كانت:

الحواري بنا توصوْصنْ كالنجـــ
م، بليل ينوء بالظلمـــــــــات

والجدار الذي يريد سقوطـــاً
راح يعطي الإنذار بالطقطقات!

ويتحدث بعد ذلك عن:

---

1- ديوان الشراع الرفراف للشاعر طاهر زمخشري، ودراسات أدبية، جـ٢، ص ٨٢/٨٤.

الرذاذ الملتاع من صخب الـرّدْ

ح، يدق الأبواب والعتبـــــات

واللحاظ التي تخطفها الـــــبر

ق، تضيء الطريق بالومضات

وعلى نورها، نسير زرافـــــاً

ت، نباري الرعود بالقهقـــات

والأبيات تجمع بين الصور الشعرية الرائعة، والمعاني الواضحة، والعاطفة الصادقة.

***

## اهتمام الأدباء والشعراء بأدب الطفولة:

بدأ الاهتمام بالكتابة للأطفال منذ أواخر القرن التاسع عشر على يد الشيخ رفاعة الطهطاوي، فهو الرائد الأول، صاحب كتاب (المرشد الأمين في تربية البنات والبنين)، بعد أن طلب منه ديوان المدارس أن "يعمل كتاباً في الآداب والتربية، يصلح لتعليم البنين والبنات على السَّوية".

وقد رتب رفاعة كتابه هذا: على مقدمة، وأبواب مشتملة على فصول وخاتمة، فعرف التربية في فصل من فصول المقدمة، وبيّن أثرها، وذكر في فصول تالية ما ينبغي أن يأخذ به الأطفال في صغرهم، من تربية خلقية ودينية منذ الصغر.

ولرفاعة منظومة في تأديب الأطفال، وهي مكونة من خمسة وأربعين بيتاً، يتجه فيها إلى الابن، قائلاً[1]:

في برِّ والديْكَ بالغ تَغْتَنِمْ
لا سيما في العيد أو في الموسم

وإن تَرُمْ ســـــرور أم أو أبِ
يوماً .. فكسب العلم خيرُ مكسب

---

1- رفاعة الطهطاوي بك، للأستاذ أحمد حسن مبروك، ص ٤١ [illegible] مباهج الألباب المصرية لرفاعة بك الطهطاوي، ص ٧٦.

ويقدم قاعدة للأخلاق القويمة، بعد ذلك بقوله:

وشرٌ أوصاف الفتى هو: الغضبْ
يُفضي إلى ارتكاب ما لا يُرتكبْ
فياله من خصلة ذميمـــــــــــة
في تركها مصلحة حسيمـــــــه

- - -

ثم تصدى بعد ذلك الشاعر محمد عثمان جلال لترجمة حكايات لافونتين والاقتباس منها لإصدار عدد من الحكايات المنظومة التي وصفها بأنها (حكم ومواعظ أخلاقية على ألسنة الطير) وتحقق لقارئها متعة ذهنية[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الدفقة الشعورية هي التي تجعل المنشئ لأشعار الأطفال - يسعى إلى اختيار الرداء اللفظي الذي يأتزر به ويعبر به عن مشاعره .. بالفصحى أو بالعامية .. وهذا شوقي -أمير الشعراء- مع إبداعه في مجال شعر الفصحى، كانت للشاعر أغنيات مشهورة لكبار المطربين، وكذلك الشأن مع الشاعر إسماعيل صبري .. ولصيرورة شعر

---

1- ينظر: مكتبات الأطفال، د. فتحي عبدالهادي، طبعة دار الفنون العلمية، ص ٦٥ ومابعدها.

شوقي بالعامية، كالفصحى سواء بسواء، قال بيرم التونسي شاعر العامية المشهور محتداً ومخاطباً شوقي:

يا أمير الشعر .. غيرك
في الزجلْ يبقى أميرك!

والذي يهمنا في هذا الجانب هو أدب الأطفال الذي قدّم لهم، أو عنهم باللغة الدارجة أو الفصيحة، والأغنية التالية تتسم بالعراقة المتوارثة، وهي مجهولة المؤلف، وقد جاءت أشبه بالموروث الفلكلوري العريق في التداول، جيلاً بعد جيل.. وفحوى هذه الأغنية التي كثيراً ما يردّدُها الأطفال، أن كل صاحب حرفة بحاجة إلى صاحب الحرفة الأخرى، المغايرة لحرفته، وكلمات الأغنية تقص عليك (حدوثه في الزيت ملتوتة) ويقسم راويها أن لا يقولها إلا (لما ييجي صاحبها) ولكن صاحبها هذا (ع السطوح[1]، ثم يكمل بعد ذلك أن:

السطوح عاوز سلـــم
والسلمْ عند النجـــــار
والنجار عاوز مسمــار

---

1- الأدب الشعبي للأستاذ أحمد رشدي صالح، النهضة المصرية، ٢٠٠٢، ص ١٩.

والمسمار عند الحداد[١]

والحداد عاوز بيضــة

والبيضة عند الفرخــة

والفرخة عاوزه قمحـة

... الـخ هذه الاحتياجات المتشابكة، التي تفضي كل منا إلى الأخرى، بتسلسل منطقي متتابع.

وهناك أغنية شعبية أخرى لشوقي، رددتها أجيال الأطفال، وفيها يطلب شخص ما من (طالع الشجرة) أن يأتيه منها ببقرة!! تدرّ اللبن الذي يشربه الأطفال، تقول كلماتها[٢]:

يا طالع الشجـــرة هات لي معاك بقرة!

تحلب وتسقينـــي بالمعلقة الصينـــي

والمعلقة انكســرت يا مين يروينـــي

***

1-أي ما يفي كثمن لمبيعاته: عيني أو نقدي.

2- مدخل في أدب الطفل للدكتور كال الدين حسين، طبعة النهضة، القاهرة، ١٩٩٨ م، ص ١٣٤، ١٣٥.

وأيضاً عندما يهلّ شهر رمضان المبارك من كل عام؛ نجد الأطفال يستقبلونه ليلاً بفوانسيهم الملونة المضاءة، وبعد الإفطار يتوافد الأطفال ويسيرون وهم يُنشدون[١]:

لولا (فلان) ما جينا ولا تعبنا رجلينا

يحل كيسه ويدينا يا الله الغفار

يدينا متين جنيه يا الله الغفار

متين جنيه ما يكفونا يا الله الغفار

... الخ.

وحين يأتي يوم الوقفة، أو يقترب يتجمعون أيضاً، ويرددون[٢]:

يا برتقال أخضر وجديد

بكره الوقفة وبعده العيد

يا برتقال أصفر وصغيّر

بكره الوقفة وبعد نعيد

---

1- المصدر السابق.

2- ألعاب الأطفال الغنائية الشعبية، د. كمال الدين حسين، طبعة دار الفاهرة، ١٩٩١.

ولا نلاحظ في الأغاني السابقة تنظيم حركي منغم يصاحب أدائها.

والشاعر أحمد شوقي بصفة خاصة، لم ينسّ حق الأطفال عليه، ليبدع لهم بعض الأناشيد، التي تتفق و(قاموس) لغتهم، والمفردات الشائعة بينهم، وقد حذا في ذلك حذو الشاعر الفرنسي (لافونتين) في خرافاته .. وكان هدف شوقي أن يصل (الشعر) إلى أطفالنا، وأن يصلوا هم، بدورهم، إليه ... وذلك: "لأن الشعر صور، ترسمها الكلمات، وتجعل أطفالنا يتخيلونها؛ فتتسع آفاقهم، وإنسان بلا خيال - يفقد أروع منحة أعطاها الله له،وللشعر موسيقى، هي مدخل إليه وهو طريقهم إليها .. ومن خلاله ندرب آذانهم على الأوزان والبحور والألحان والأنغام..

إن الشعر في العصر الحديث هو الملاذ، وهو النجاة بالنفس والروح، في عصر تحكمت فيه الماديات، كما نجد إن الطفل حتى وعمره عام واحد، يتوقف عن حركاته واهتزازاته إذا هو سمع مقطوعة الشعر: "ملحنة ، مغناه" وبعدها قد تضيء وجهه ابتسامة حلوة، الأمر الذي يؤكد التأثير السحري الشعري..

والصغار الذين يتقافزون كالقرود لو قرأنا عليهم شعراً جيداً لاستكانوا، وهدؤوا وثبتوا في أماكنهم، وتوالت على وجوههم ألواناً شتى من الانفعالات، وسُرعان ما تلتصق بآذانهم فيرددونها حتى لتصبح جزءاً لا يتجزأ من مكوناتهم، ولا ينسونها أبداً..[١].

إنهم لا يستوعبونها معنى، وفكراً، لكنهم بدون شك يستمتعون بها، وبوقعها، وبلغتها، والصور التي ترسمها، فهي تثير الخيال، وتفتح آفاقاً لا تحد)[٢].

ومن منا لا تعي ذاكرته، أنشودة شوقي التي ترددت كثيراً وحفظها الأطفال في الأجيال السابقة، عن (اليمامة والصياد) التي يقول فيها[٣]:

يمامة كانت بأعلى الشجـــره
آمنه في عُشها مستـــــــتره

وأقبل الصياد ذات يـــــوم
وحام حول الروض أيَّ حـوم

---

1- المختار من ديوان شوقي للأطفال، أ. عبدالتواب يوسف، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص ١٦.
2- المصدر السابق، ص ١٨.
3- الشوقيات جـ٤، ص ١٢٤.

فلم يجد للطير فيه ظـــــلاً

وهمّ بالرحيل حين مـــــلاً

فبرزت من عُشها الحمـقـــاء

والحُمق داء مالـــــــه دواء

تقول، جهلاً بالذي سيحـــدث

يأيها الإنسان .. عما تبحـــث؟

فالتفت الصياد صوب الصوت

ونحوه سدد سهم المـــــوت

فسقطت من عرشها المكيـــن

ووقعت في قبضة السكيـــن

تقول قول عارف محـــــقق

"ملكت نفسي،لو ملكت منطقي"

- - -

ونجد في أبيات شوقي، معانٍ ذات سمات رمزية، يصعُب على الأطفال فهمها، وتراكيبها اللغوية لا تتوافق مع قاموس الطفل اللغوي، إلا أنها تُحسب للشاعر شوقي الريادة في

قصص شعرية أخرى، كالتي تحمل عنوان (ولِيَّ عهد الليث، وخطبة الحمار)[1]:

لما دعا داعي أبي الأشبـــــال
مبشراً بأول الأنجـــــــال

سعت سباع الأرض والسمـــاء
وانعقد المجلس للهنـــــــاء

وصدر المرسُوم بالأمـــــان
في الأرض: للقاصي بها والداني

فضاق بالذيول صحن الـــدار
من كل ذي صوفٍ وذي منقـــار

حتى إذا استكملت الجمعيـــة
نادى منادي الليث في المعيـــة:

هل من خطيب محسن خبـــير
يدعو بطول العمر للأمـــير؟

فنهض الفيل المُشير السامـــي
وقال ما يليق بالمقـــــام

---

1- الشوقيات جـ٤، ص ١٧٨.

ثم تلاه الثعلب السفـــــــــــير

ينشد حتى قيل: ذا (جريـــــــر)

إلى أن يقول:

وأومأ الحمار بالعقـــــــيرة

يريد أن يشرّف العشـــــيرة

فأزعج الصوت ولي العهـــد

فمات من رعْدته في المهـــد!

فحَمل القوم على الحمـــــــار

بُجملته الأنياب والأظفـــــار

وانتُدب الثعلب للتأبـــــــين

فقال - في التعريض بالمسكين

لا جعل الله له قـــــــــرارا:

عاش حماراً .. ومضى حماراً!!

وهذا النص يُظهر خفة ظل شوقي، واعتماده على عنصر التشويق في صياغة أبياته، مع مراعاة عدم صعوبة الألفاظ الفصيحة التي يمكن أن تحول دون استيعاب المعنى المنشود، وكانت الوحدة الموضوعية السائدة بين أبيات القصيدة، سبباً في شدّ الانتباه إليها، وسرعة استيعابها وتذوقها.

أما رائد شعر الأطفال في مصر بحق، فهو الشاعر "محمد الهرّاوي" الذي أمد المكتبة العربية بدواوينه التي تحمل عناوين: (سمير الأطفال - للبنين والبنات) في ثلاثة أجزاء، و(السمير الصغير) و(الطفل الجديد) و(أنباء الرسل) وفي الديوان الأخير يقدم الهراوي لنا موقفاً بالغ الروعة للخليل إبراهيم عليه السلام حينما رأى في المنام أمراً إلهياً اختبارياً، بذبح ابنه إسماعيل الذي رزق به على كِبَرٍ ..

فاستدعاه إليه وأطلعه على ما أمر به، فما كان من هذا الابن البار إلا أن امتثل للأمر، وتَدَعُ الهراوي يصور لنا هذا الموقف بقوله في الأبيات التالية[1]:

فأبصر في الكرى حُلماً ... أفاق به علـــى روْع

وراح إلى ابنه يدعـــو ... وبلَّ الثوبَ من دمـــع

وقال: رأيت في نومي ... كأنّي جئت بالنَّطْـــع

وأنك تحت سِكِّينـــي ... وجيدك مُوشك القطع

فماذا أنت مبْصِـــرُهُ؟ ... وماذا أنت من صَنْـــع

فقال له: ستلفينـــــي ... كما عَوَّدْتَ من طبـــع

---

1- محمد الهرّاوي، شاعر الأطفال، إعداد: أحمد سويلم، طبعة القومي لثقافة الطفل، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٦٠.

"صبوراً للذي ألقـــى  مُطيعاً غاية الطـــوع

وبعد هذا المشهد الجليل، يستكمل الهرّاوي بقية ما حدث، بقوله:

أعَدَّ النصل في يـــده  لفصل الرأس عن جزع
وهمَّ به، فنازعـــــه  حنانُ أبٍ، إلى .. بضْـع
يرد .. يداً، ويدفعهـــا  إليه .. غاية الدَّفـــع
ولما كاد يذبحـــــه  أهب الله بالمنـــــع
وكان (الكبش) فِديتـــه  وقرَّ الأصلُ بالقـــرْع

***

ثم يحدثنا في المصدر نفسه ، عن ميلاد سيدنا موسى عليه السلام، وموقف الأم من الأمر بإلقائه في اليمّ، يقول:

موسى الكريم ذِكْـــرُهُ  أكرِمْ به من ذكـــر
قد ولدته أمـــــه  في خُفْـيَةٍ وســـتْر
فآل "إسرائيلُ" كـــا  نوا عُرضةً للشـــر
وخشيت من أن تنـــا  لَ منه أيدي الغـــدْر
فالله أوْحَى لهـــا  "أن أبشري وقـــرِّ"
(ضعيه في "التابوت،  واقذِفِيهما في النهـر)

فينتهي اليمُّ بـــــه لمَأمَنٍ في البَـــــرِّ

في قصر فرعـــون

ومذ رآه .. عالـــــهُ "فرعون" ربُّ مصر

ثم أتى بمرضـــــع تكفله في القصـــــر

فجاء بأمـــــــه ولم يكن لِيَـــدْري

وعن معجزة ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام، يقول[1]:

"عيسى وما زال اسـ ـمه يعطّر النَّـــــدِيَّا

قد ولدته أمـــــه مبرأ نقـــــــياً

ولم يكن لـــــه أبٌ ولم تكن بغـــــياً

لكن "جبريل" تجلّى بَشَراً ســـــــوياً

فبث فيها الروح منْ إلهه .. وحـــــيًّا

فحملت به غـــــلا ماً طاهراً زكيـــــا

وخشيتْ من أهلهـــا فانتبذت قصيـــــا

فجعل الله لهـــــا من تحتها سريـــــاً

وولدته آيـــــــة قد أحدثـــــت دَوِيًّا

---

1-المصدر السابق، ص ١٦٩.

قال لها: لا تحزنـــي ولا تخافي شـــــيًا
وهزي إليك النخـــ ـل يسقط رطباً جنياً

وفي حديثه لقوم أمه:

ورجعت لقومـــها تحمله صبـــــياً
قالوا لها: لقد أتـــ ـيت عملاً فريـــاً
فأومأت إليه، قـــا لوا: "ما لنا، وتيًا؟"
فقال عيسى مُبديـاً كلامه جَليـــــاً:
إني "عبدالله" قـــد أرسلني نبـــــياً
وقد أمرت أن أكـــو ن مخلصاً وفيـــاً
مصلياً مُزكيـــاً وعابداً تقيـــــاً
ومُكْرماً والدتـــي برًّا بها حَفِـــــيًا

***

ويمضي الهراوي، بهذه السلاسة والطلاوة، فى جانب أخر ، إلـى التعبـير عـن (محـبة الوالـد)، علـى لسـان طفـل صـغير، يقول[1]:

---

1- المصدر نفسه، ص ١٨٠.

كم يأتي لك من يـــد عندي وكم لك من أثرِ
أنت الذي ربَّيْتَنِـــــي ورعيْتَنِي منذ الصـغر
وكسوْتني وغذَوتنـــي ووقيتني شرَّ الغـــيرْ
فإذا ألم بي الضـــنى حل الأسى بك والسهر
تدعو الطبيب ولا تنِي حتى يجاوزني الخطر
وأفدْتني العلم الــذي هو كنز مالي المدخر

***

ثم يلتفت الهراوي بعد ذلك، إلى الأم وأفضالها وفضائلها، فيقول بلسان طفلٍ يحادث أمه، وهو ما زال في مهده، يقول:

من ذا الذي يحنو عليَّ إذا غفو
تُ، وإن صحوتُ تبسَّمتْ شفتا

أمـــي العزيزه .. أنت يا أمــاه

ويمضي في هذه التساؤلات المحببة، إلى أن يقول:

من ذا الذي نفسى أعزّ مكانة
من نفسه، ومُنايَ فوق مُناه؟

أمـــي العزيزة .. أنت يا أماه

وإذا استيقظ الطفل صباحاً، أجرى التحية بلسانه على أبيه وأمه، فيقول:

أبي وأمي الغاليـــه أصبحتما في عافيه

تقبيلتان لكمـــــا ظاهرة وخافيـــه

إحداهما على فمي وفي فؤادي الثانيه

ألا ما أروع هذه الابتسامة الثانية التي تُرسم على صفحات فؤاده...

وهكذا سخّر "الهراوي" موهبته الفذّة، في التفكير للطفل، وفي الطفل، ويبدع جُلّ شعره مستلهما أخيلة الطفل وأحلامه وأمانيه، ويبثّ من خلالها الصفات الجميلة، التي يهفوا إلى أن يتحلى الطفل بها.

فلقد جعل شغله الشاغل أن يتقصّى كل صغيرة وكبيرة تتصل من قريب أو بعيد بالأطفال، متخذاً منه سبيل هداية للصغار، وكأنه أبٌ لهم جميعاً، يوزّع عليهم بالقسطاس المستقيم حبه وجنانه حيث هم، في كل مكان وزمان .. وهكذا تعطرت صفحات دواوينه بأنفاسه التي بثها من وجدانه وتحنانه، لتمهرها بالخلود لأطفال الأجيال المتعاقبة..

ولهذا استحق الريادة لشعر الأطفال في أدبنا العربي، ووجدنا في أدبه معيناً لا ينضب؛ يجعلنا نقول مع الشاعر "محمد فضل إسماعيل:

لو أن إنساناً تخيل حاجـــــة
يسعى إليها .. راح برُّك يسْبِقُ

فماذا يقول الهراوى، عن الأزهار والأطفال)؟، إنه يقول بلسان الأطفال جميعاً:

يا شَجَرات الـــورد لكِ حديث عنـــدي
لزهرك المخْمَـــرِّ في الورق المخضـر
رائحة معطـــرة وطلعة منـــورة
لولا يد البستانـــي ترعاك في كـــل آن
ما طاب منك الزهـــر أو فاح منك العطـــر
كذاك نحن في الصِّغـ ـرْ نشب أزهار الشجر
لولا يد ترعانـــا فيَّاضةً حنانـــاً
لما نبتنا زهَـــرا ولا نضجنا ثمـــرا
فالأب والأمُّ معـــاً أصلٌ يربي الأفرعـا

وهناك نشيد للهراوي ذاع صيته، يتحدث فيه بلسان طفل، كان تلميذاً نجيباً في مدرسته، وألجأته ظروف معيشته إلى أن يعمل في (النجارة) بعد الظهر، وربما كان الباعث على ذلك، رغبته في مساعدة الأسرة، وزيادة دخلها، فقال على لسان هذا التلميذ:

أنا في الصبح تلميـــذ وبعد الظهر نجـــارُ
فلي قلم وقِرْطـــاس وإزْميل ومنشـــارُ
وعملي إنْ يكن شرفاً فما في صنعتي عارُ
فللعلماء مرتبـــةٌ وللصُّنَّاع مقـــدارُ

ونلاحظ في هذه الأبيات: سهولة ألفاظه، وتراكيبه، وقوة معانيه ووضوحها.

ولـه نشيد آخر، يحمل عنوان (الحلقة الدوارة) ما زال عالقاً بأذهان الكثير منا، لسلاسة ألفاظه، وتناسق وتتابع الحركة الجماعية فيه، أثناء تأدية هذه اللعبة الرياضية الطريفة، يقول النشيد الجماعي:

دار الصـــف لفُّوا لفُّـــوا
لفُّوا الأيـــدي لفَّ القـــيد

قيدُ الصَّحْـــبِ هو في القلب[1]

قلبي صافـــي راع وافـــي

وافى الـــودّ حَسَنُ القصـدِ

قصدي الفضل أنا والأهـــل

أهل القطـــر هم في الصدر

صدر الزمـــن لبني وطنـــي

وطني مصـــر ولي الفخـــر

ويعني ببني وطني: أن مكانة بني وطنه هم في المقدمة من مشاعره في جميع الأوقات.

ويمتاز هذا النشيد بعُمق مغزاه، وانسياب موسيقاه، وتغلغله في نفوس منشديه الصغار بصدق وعمق، وهو يمثل مرحلة الترابط بين الأصدقاء الأطفال، في مرحلة مبكرة من العمر، قد تستمر إلى مدى بعيد، وهو يعيد إلى الأذهان نشيد شوقي الذي أوردناه من قبل ومطلعه:

ألا حبّذا صحبة المكتب وأحبب بأيامه أحبـــب

---

1- يعني أن الزملاء لا تتقيد إلا بقيد الودّ الذي يُفعم القلوب.

تلك الأيام التي أصبحت أجمل الذكريات، بعد التقدم في العُمُر.

***

وهناك أغنية أخرى تحث ببساطة كلماتها على الترتيب والنظام، مع مُدرِّسة الفصل، ولا زالت كلماتها محفورة في الأذهان، وهي بعنوان: الترتيب والنظام:

إن الذي يرتـــــب　　متاعه لا يتعـــــب
فكل شيء عنـــــده　　في موضع أعَـــدَّهُ
متى يُعدْ إليـــــــه　　يجده في يديـــــــهِ
من غير بحثٍ يُجْهِدُهْ　　ولا زمانٍ يفقـــــدهْ
حسن نظام العمـــــل　　يضمن نيلُ الأمـــــلْ

وهكذا، نجد أن "محمد الهراوي (١٨٨٥-١٩٣٩م) يعدّ أول من انصرف بكليّته نحو شعر الأطفال، كما يقول د. هادي نعمان الهيتي[1].. فأبدع مقطوعات شعرية يتناسب كثير منها مع مستويات الأطفال الإدراكية واللغوية، من خلال منظوماته الشعرية: "سمير للأطفال للبنين" و"سمير للأطفال للبنات"،

---

1- شعر الأطفال، د. هادي نعمكان الهيثي، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٢٥.

وكل منها في ثلاثة أجزاء، ثم أغاني الأطفال في أربعة أجزاء كما كتب عدداً من القصص المنثورة، ولكن شعره كان في الغالب شعراً تعليمياً[1].

ولعل درة شعره كله، تلك المنظومة التي قدمها للأطفال، وهم في مستهل أعمارهم وبداية نطقهم، بسهولة تبلغ حد الإعجاز لا يُوفق إلى مثلها إلا شاعراً فذاً ممتازاً، فيقول تحت عنوان (الحروف في الأسرة):

ألف

ألف ألف في منزلنا

ألف لزمت كلاّ.. مِّنا

ألف: أمي وأبي معنا

ألف: أختي وأخي وأنا

أب: أ . ب

ألف باء يعني: أب

هو في قلبي ملء القلب

أم أ. م

---

1- المصدر السابق، ص ٢٦.

ألف ميم  يعني: أم

أدعو أمي  ملء الفم

أخ:  أ . خ

ألف خاء  يعني أخ

أهلا بأختي  وبخ بخ

جدّ:  ج. د

جيم دال  يعني: جدّ

يحيا جدي  وله السعد

عم:  ع . م

ليدي عم  فضل جم

وهكذا يأخذ الهرّاوي بيد الأطفال في بداية النشأة الأولى من عمرهم؛ ليسير معهم خطوة خطوة، نحو التعلم السهل اليسير، بأسلوب اللعب الذي يمرح فيه الأطفال، بلثغاتهم الأولى، ونطقهم المبتدئ الحروف والأسماء .. وهذا أمرٌ في غاية الدقة، لم يُتح لغير الهراوي الالتفات إليه من قبل، بذكاء، وفطنة، وإلهام..

ويبلغ توفيقه مداه، حينما يعطي للأطفال، ومن ذلك قوله:

الفار ..

دال : ألف راءٌ : دار

غاب القط : لعب الفار

وز ..

راء .. زاي رُزٌّ رُزٌّ

وز، بط بط وز

الوطن حاء، سين نون: حسن

سلم الوطن يحيا الوطن

وهذا جهد كبير في التفكير والمثابرة، وإمعان النظر والتأمل للوصول إلى تقديم ما يناسب الطفل المبتدئ إلى وسائل النطق والتعليم ببساطة وإرشاد، وجد ولعب، لمعرفة حقائق المفردات وطريقة الفهم والنطق..

ونكاد نقرر أن الهراوي اهتدى إلى كل ذلك في لحظة التجلي والصفاء، من فرط حبه للأبناء والأحفاد، وهم يخطون خطواتهم الأولى، في عالم الإبانة والإفصاح، وليت عالم

رياض الأطفال يعيد التفطن لها، كما فطن لها جيل عام ١٩٣٦ الذي ظهر فيه كتاب "الهرّاوي" لأول مرة[١].

ويستوقفنا الشاعر "سليمان العيسى" في هذا المجال في مقدمة مجموعته الشعرية الكاملة (غنُّوا يا أطفال)[٢]:

"أصدقائي الصغار يسألونني كثيراً لما تكتب للأطفال؟.. وأجيب: ولمن تريدون أن أكتب؟، وهل هناك موضوع أجمل وأغنى وأهم؟، وهل شبع أدباؤنا من الكتابة للصغار حتى أسكت أنا- وأطوي هذه الرغبة بين الضلوع..

ثم يتساءل مرة أخرى بينه وبين نفسه: لماذا تكتب للصغار؟ ويجيب: "لأنهم فرحُ الحياة، ومجدها الحقيقي؛ لأنهم المستقبل، ولأنهم الشباب الذي سيملأ الساحة غداً، أو بعد غدٍ؛ لأنهم امتدادي وامتدادك في هذه الأرض.

وقد تابع "سليمان العيسى" الرائد "محمد الهرّواي" في النشيد الذي أعده للأطفال وحذا حذو "الهراوي" سالف الذكر، وهو يعدّ بمثابة إسهام آخر يساعد الطفل على حفظ (ألف باء) العربية واتخذ لنشيده عنوان (حروفنا الجميلة)، ويقول فيه:

ألِفٌ باءٌ  تاءٌ ثاءُ

---

1- شعر الأطفال أ. عبدالتواب يوسف، ص ٢٥.
2- المصدر السابق، ص ٦٦/٦٧.

هيا نقـرأ  يا هيفـــاء

ألف: أبتي

باء: بلدي

بيدي بيدي  أبني بلدي

وهـو فـي هـذا الاسـتهلال الموفـق، يعنـي إشـعار الأطفـال بقضـايا الوطن والاستبداد المتربص بها، ونتبين ذلك بوضوح حينما يستتلي قائلاً:

قالت: ماذا  يأتي بَعْدُ؟

ثاءٌ :  ثوره

تحيا الثورة

جيمٌ حاءٌ  خاءٌ دال

هيا ننشد  يا أطفال

جـيم: جَبَلُ

حـاءٌ: حَمَلُ

خـاءٌ: خالـي

رَجَلُ: فِعـال

إلى أن يقول متابعاً:

زاي زارا

عمي الدارا

حييناه صافحناه

قلنا أهلاً يا عماه!

شينٌ صادُ ضادٌ طـاءُ

بعد الطاءِ تجيءُ الظاء

غني عنا يا لمياء

ويعلق الدكتور عبدالعزيز المقالح على ذلك بقوله (يطرح الشاعر بطريقة غير مباشرة - ومن خلال قراءة الحروف، وتسهيل حفظها عن طريق النظم والنغم- ما استطاع من الآراء، التي سيكبر فهمها ويتسع، في ذهن الطفل، باتساع الأيام، وتقدم العُمُر)[1].

ثم يقدّم سليمان العيسى نشيداً وطنياً للطفل، بلغة ميسرة، ليجمع بين الحُسْنَيَيْن: الحروف - هذا المفتاح الساحر، بكلّ

---

1- المصدر السابق، ص ٧٣.

معارف الوجود، والتربية الوطنية التي تخلق الوعي بمأساة فلسطين منذ نعومة أظفارهم، يقول بلسان الطفل:

فلسطـــين داري ودَرْب انتصـــاري
تظل بـــــلادي هوى في فـــؤادي
ولحناً أبـــــيًّا على شَفَتـــــيًّا

إلي أن يقل عن الصهيونيين، أنهم:

وجوه غريبـــة بأرضي السليبة
تبيع ثمـــاري وتحتـــل داري

ثم يلتفت إلى ما يجب أن يكون:

وأعرف دربـي ويرجع شعبـي
إلى بيت جـدِّي إلى دِفء مهدي
أنا ابن الحيـــاةِ برغم الغـــزاةِ
فلسطـين داري ودرب انتصاري

ونلاحظ الفرق بين "الهراوي" و"العيسى" من الناحية الفنية: أن الهراوي قد اعتمد على الألفاظ المألوفة البسيطة، والأسلوب السلس والوصفي، والمعاني الواضحين، واختيار

البحُور التي تساعد على الغناء كالرجز والرمل والمتدارك، مع التزامه بالناحية الخلفية والدينية في أشعاره.

أما العيسى: فقد امتازت منظوماته للأطفال باللفظة الرشيقة المُوحية، والصورة الشعرية الجميلة، والفكرة النبيلة الخيّرة، والوزن الموسيقي الخفيف الرشيق.

***

أما كامل الكيلاني فهو رائد أدب الأطفال في الوطن العربي، فقد تصدّى بوعي وبصيرة للكتابة للأطفال، فأتاح للملايين منهم الكتب المناسبة؛ للتزوّد بالثقافة والمعرفة المتنوعة عن طريق تأليف القصص الهادفة التي تستوحي التراث العربي تارة، وعيون الأدب العربي تارة أخرى، وبين الحكمة والعلم والفكاهة والدين، مما يلقى قبولاً لدى الأطفال..

وجاء التراث الشعبي مصدراً هاماً استلهم منه العديد من حكاياته، مثل: أبو الحسن، وأبو صير، وأبو قير، ورحلات السندباد، والأمير المسحور، والأميرة شمس، ونوادر جحا، وحكايات الحيوان مثل: طربوش سلطان القرود، والأرنب الذكي، والدجاجة الصغيرة الحمراء .. وغيرها..[1].

---

1- أساليب تربية الطفل بين النظرية والتطبيق، د. سهير كامل أحمد، مركز الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص ٣٣ وما بعدها.

ولـه فـي الجانـب الديني معالم السيرة النبوية العطرة مثل: أضـواء المولـد السـعيد، ودواعـي الهجـرة، وذكـريات أحـد .. وغيرها.. وصدق أنيس منصور الذي قال عنه: "كان شعار هذا الرجل أن يعمل ويعمل دائماً، إنه هو الذي فتح باب العناية بالطفل وتسليته وتثقيفه"[1].

وبعد هذه الجولـة الوجدانـية التـي طفنا فيها عبر عوالم الطفل الرحيبة، الذي هومنا في شتى نواحيه، ومراتع لهوه، ومغانـي ذكرياته، التـي عرفناها مرتين، فـي حياتنا وحياته، إذ هـم امـتداد لـنا، ونحـن أصـول وجـذور لهـم .. وحسـبنا قـول الشاعرة العربية في تغنيها قديماً لطفلها، بقولها:

يا حبـــذا ريح الولد ريح الخُزاميّ في البلد

أهكذا كل ولـــــــد أم لم يلدْ .. قبلي أحد؟!

***

1- أدب الطفل، ص ٤٤٤.

ونخلص من هذا البحث المحبّب إلى النفس إلى عدة نتائج هي كالتالي:

أولاً: ما للطفل في كل قلب من محبة ومكانة خاصة غالية؛ لوداعته، وبراءته، والائتناس به، لأننا نرى فيه صورة متجددة مصغرة لكل منا ولطفولتنا وذكرياتنا التي لا تُنسى، وقد وجدنا كثير من الشعراء صوّر تحنانه لها في مخيلته شعراً، وصدق القائل:

ليت الزمان الذي ولّى يدور بنا
حتى نعود إلى أيامـــــنا الأول

ثانياً: فضلت اختيار الكتابة في بحث يدور حول جوانب من ادب الطفولة في الشعر العربي المعاصر باعتبارها أول حلقة في سلسلة دورة حياة الإنسان؛ حيث تتلوها حلقات متتابعة كالصبا، والمراهقة، والنضج .. الخ، ولكن من خلال دراستنا نستشف أن مرحلة الطفولة هي حجر الزاوية في بناء الإنسان في سنواته الأولى من العُمُر والتي ركّز عليها الكثير من الشعراء والأدباء في تصوير مشاعرهم إزاء أطفالهم أو أطفال غيرهم. وتصوير ما يصدر عن الطفل، وخاصة في شهور حَبوه ومحاولته المشي بمفرده، وما يُواكب ذلك من بسمات وضحكات

مجلجلة والتي تصدر عن قلب خالٍ من الهموم والمنغصات وحركات طريفة ساذجة، تجتذب اهتمامنا وتعاطفنا؛ الأمر الذي يدفع الشاعر أو الأديب أن يسجل مناغاة الطفل، ومداعباته.

ثالثاً: الحرص الشديد من الشعراء والأدباء على تسجيل وإثبات ما يعانيه الأطفال البؤساء جنباً إلى جنب مع غيرهم من الأطفال السعداء؛ لسوء التنشئة في بيئة فقيرة محتاجة للمساعدة، أو لسبب فقد الأم أو الأب، أو فقدهما هما الاثنين معاً .. مما يجعل الطفل ينشأ يتيماً لطيماً، وما أثاره هذا لدى الشعراء والأدباء الذين شاهدوهم عن كثب، وما صدر عنهم من رثاء وتعاطف مع الطفل البائس، وخاصة الطفل الذي انتهى إلى مرحلة التشرد والضياع، كما أثبتنا ذلك فيما أوردناه من شعر "إبراهيم محمد نجا" و"علي الجارم" من وصف لحالة الطفل الذي انتهى إلى الضياع وأصبح وحيداً طريداً، أو مطروداً من المجتمع.

رابعاً: وقد أوردنا نماذج رائعة، نثرية وشعرية، للأدباء والشعراء النابهين تصور لنا مراحل الطفولة الغضة، في شتى حالاتها وصورها وتطوراتها؛ الأمر الذي من خلاله نستطيع أن نتبين أهم خصائص الشعر الذي صور الطفولة وموضوعاتها المختلفة، قد جاء مناسباً للغرض الذي

صيغ من أجله، فنجده يشتمل على الصورة المؤلمة التي تمتلئ بالعاطفة الشجية الباكية في الرثاء والحُزن أو المُبهجة الرشيقة اللفظ والوزن في المواقف السعيدة والمفرحة.

خامساً: اهتمام رواد أدب الأطفال (شعراً ونثراً) بالتطوير والتجديد والأخذ من التراث الشعبي الموروث لتنمية الطفل والنهوض به في شتى المجالات.

وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء السبيل؛؛

دكتوره/ سهام سيف الدين علي غنيم

مدرس بقسم الأدب والنقد بالكلية

- جوانب مضيئة من الشعر العربي، بقلم: محمد عبدالغني حسن، ط مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٢م.
- دراسات في الشعر العربي المعاصر، د. شوقي ضيف، ط مكتبة الخانجي، ١٩٥٩م.
- دراسات أدبية، بقلم: جليلة رضا، جزءان ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.
- رفاعة الطهطاوي بك، للأستاذ: أحمد حسن مبروك، ط القاهرة، بدون.
- شعر الأطفال، د. هادي نعمان الهيتي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.
- شعراء معاصرون، للأستاذ: أحمد مصطفى حافظ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
- صفحات من حياة الرصافي وأدبه، تأليف هلال ناجي، مكتبة العربي، القاهرة، ١٩٦٢م.
- فلسفة الطفولة، ترجمة: حبيب سلامة، ط ١٩٣٦م.
- طريق الهجاء والتمرين على القراءة في اللغة العربية، تأليف: علي مبارك وآخرين، القاهرة، ١٨٨٢م.

- معروف الرصافي للهشاعر العرب الكبير - حياته وشعره لله تأليف: قاسم الخطاط ومصطفى السحري ومحمد عبدالمنعم خفاجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١م.
- محمد تيمور للهحياته وأدبه لله، للأستاذ: محمود تيمور، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون.
- محمد الهرّاوي شاعر الأطفال، إعداد: أحمد سويلم، ط المركز القومي لثقافة الطفل، القاهرة، ١٩٨٧م.
- مدخل في أدب الطفل، د. كمال الدين حسين، ط القاهرة، ١٩٩٨م.
- مباهج الألباب لرفاعة بك الطهطاوي، بدون.
- مكتبات الأطفال، د. فتحي عبدالهادي، دار الفنون العلمية.
- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، للمقري محي الدين عبدالحميد، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي، ط دار المعارف، الثانية، ١٩٨٢م.
- نماذج فنية بين الأدب والنقد، ط القاهرة، ١٩٥١.

## دواوين:


- ديوان أبي العلاء المعرّي - سقط الزند تصحيح: إبراهيم الزين، ط دار الفكر، ١٩٦٥م.
- ديوان الشوقيات، ط دار الجيل بيروت، ط أولى، ١٩٩٥م.
- ديوان ابن الرومي، شرح وتحقيق: د. حسين نصار، مركز التراث، ١٩٨١م.
- ديوان الشراع الرفراف، للشاعر السعودي: طاهرزمخشري ط مكتبة الفيحاء.
- ديوان الأمس الضائع، بقلم: حسن عبدالله القرشي، ط ١٩٦٨م.
- ديوان أنداء وظلال، للشاعر: أحمد مصطفى حافظ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط أولى، ١٩٧٩م.
- ديوان محمد فضل إسماعيل، ط المجلس الأعلى للفنون والآداب، ١٩٧٢م.
- ديوان حلية الطراز، لعائشة التيمورية، ط القاهرة، ١٩٥٢.
- ديوان اللحن الباكي، لجليلة رضا، مكتبة الخانجي، ١٩٥٤.
- مجلة الطريق، عدد ١٠/١١، السنة ٢٧ - ١٩٦٨م.

- مجلة الأزهر، عدد يناير ١٩٩٣م.
- مجلة الرسالة، عدد أبريل ١٩٣٦، وعدد نوفمبر ١٩٥٠.
- مجلة الشعر، عدد ٢٣، السنة السادسة، ١٩٨١م.


**تم بحمد الله تعالى وتوفيقه**